

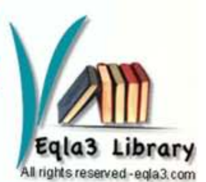


المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم

د.أحمد خيري العمري





الدكتور

أحمد خيري العمري

(١)

المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم



بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(١)

المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم

المهمة غير المستحيلة: الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم / أحمد خيري العمري .- دمشــــق: دار الفكر، ٢٠٠٨.- ١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ١)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري



2011=1432
دار الفكر - دمشق - برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

١

المهمة غير المستحيلة

الصلاة بوصفها أداة لإعادة بناء العالم

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٤,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-66-5
التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)
١٤٤ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م
ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

إهداء ...

أهدي هذه السلسلة إلى لميس الدفتري،

والدتي..

محاولة لسداد دين، لا يمكن سداده...

مقدمة أولى

"نولد، إحدى ولاداتنا"

(١)

كنت في الثامنة من عمري تقريباً يوم ولدت ذات مرة..

حدث ذلك - ويا للعجب - في قاعة للسينما.. يوم اصطحبني والدي، قبل عقود تبدو الآن كما لو أنها ثلاثة قرون، لنشاهد فيلم (الرسالة)، صبيحة عيد غير منسي..

هناك، في تلك القاعة المظلمة، شاهدت سيمفونية الصوت والضوء على الشاشة، وفهمت كيف يمكن للعتمة أن تكون مضيئة..

أقول: إني ولدت هناك، لأن تفاعلي مع الضوء في تلك العتمة أدى إلى قراري الذي أسررت به إلى جدي لاحقاً ذلك المساء..

قلت له: إني سأبدأ بالصلاة..

ولم يكن جدي يصلي، بالمناسبة، ولا أدري لم اخترته لأقول له ذلك السر همساً في أذنيه، ربما كان الأمر

كطريقة احتجاج طفولية غير واعية على عدم صلاته هو..

لا أدري.. لكني أعرف أني اختزنت كل ذلك في داخلي، كبرت، و تذبذب خطي البياني في الالتزام صعوداً وهبوطاً..

لكن سيمفونية الصوت والضوء، وتلك العتمة المضيئة، وتلك (الرسالة)، وذلك العيد اللامنسي، كله اختلط في داخلي، بالصلاة..

بطريقة أو بأخرى..

(٢)

كنت دوماً أجد أنه من المؤلم أن الناس لا يصلون..

خصوصاً عندما كنت أجدهم أشخاصاً طيبين.. أشخاصاً ذوي معدن أصيل.. يتصرفون بنبل وشهامة، ومع ذلك لا يصلون..

كان ألمي يتجاوز المجاز المألوف في حالات كهذه - ليصل إلى حدود الألم الجسدي الحقيقي.. كنت أستغرب من قدرتهم على (عدم الصلاة)! مجرد قدرتهم على ذلك كانت تثير استغرابي: كيف يستطيعون أن يفعلوا ذلك؟.. يفعلوا (عدم) أداء الصلاة؟..

كان (عدم الصلاة) هو الفعل الشاق الذي يتطلب أداؤه جهداً استثنائياً مقارنة بما أتصور أنه الطبيعي؛ أداء الصلاة..

كنت أستغرب - تحديداً - قدرتهم على الاستيقاظ من

النوم، وغسل وجوههم، وتنظيف أسنانهم، وتناول طعامهم، ومن ثم التوجه إلى عملهم أو مدارسهم أو جامعاتهم دون أن يصلوا..

كيف يواجهون يومهم، دون صلاة؟..

بل كيف يواجهون حياتهم بلا صلاة؟..

كنت أتخيل أن العالم بلا صلاة يشبه صحراء الربع الخالي ليس إلاّ، وكنت أستغرب كيف يمكن لأي شخص أن يعيش في الربع الخالي..

كان ذلك كله أمراً غير مفهوم..

وفوق هذا: كان مؤلماً بشكل استثنائي..

(٣)

لكل فعل رد فعل، مساو في القوة ومعاكس في الاتجاه..

قانون الفيزياء هذا، عندما يتمثل في فعل هو (الألم) - فإنه سيعبر عن نفسه في محاولة دفع الألم، أو تهدئته..

أعلم أن لذلك أشكالاً مختلفة، لكن الأمر كان معي أني صرت أحاول رفع الألم عبر محاولتي جعل الناس يصلُّون.

لم يكن ذلك ممكناً مع كل الناس بالتأكيد. ولكنه كان ممكناً مع بعضهم. ولم يكن (الأمر) يخلو من المطبات، والنزق، والعناد خاصة وأن انتقاء الأشخاص كان يخضع لمعايير شخصية لم تكن تخلو من مزاجية..

وبكل الأحوال، كان الأمر يشبه أحياناً ركوب (سكة

الموت) صعوداً إلى الذروة وهبوطاً إلى القاع، في التعامل مع تعقيدات النفس البشرية، بكل ما في ذلك من نشوة أحياناً.. ومن إحباطات، في أحيانٍ كثيرة..

وكان هناك أحياناً، الضوء، من قلب العتمة..

(٤)

مع الوقت، اكتشفت أن ما هو أسوأ من الألم الحاد، حالة (اللاألم) التي يمكن أن تتقدم بها بعض أخبث الأمراض وأشدها فتكاً.. دون أن تقدم (إشارة) أو (علامة) على تقدمها..

اكتشفت أن مجيء الناس إلى الصلاة قد يخفف الألم، لكن ما يجب أن يكون أشد إيلاماً أن الصلاة لا تغيرهم حقاً.. أو، أنها لا تغيرهم على الأقل كما ينبغي لها أن تفعل..

كنت ألاحظ ذلك في نفسي أولاً، وفي معظم من حولي، الصلاة هذّبت هذا السلوك أو ذاك، نهت عن هذا الفعل - حسنت مثلاً من انتقاء الأصحاب والرفاق.. وهذا كله في أحسن الأحوال - وأحياناً لم تفعل.. ولكن ذلك كله كان دون المتوقع من (عماد الدين).. كان من الصعب، على بقايا الطفل في داخلي أن يقتنع أن "هذا هو كل شيء".. وأن ملحمة الضوء التي قابلها ذات يوم، لم تتمخض سوى عن ضوء (نيون) باهت..

كان مجرد القبول بذلك مساومةً مؤلمة، وكان قبول

الناس بها واعتبارها أمراً مسلماً به، في حد ذاته أمراً مؤلماً..

كان من المؤلم جداً أن الناس لا يصلون..

ولكنه كان من المؤلم أكثر، أنهم إذا صلوا، ربما لا يتغيرون..

(٥)

هذه محاولة (مختلفة) تنطلق من الإيمان بأن "هذا ليس كل شيء" بخصوص الصلاة..

إنها محاولة لإثبات أن ما هو عماد للدين، يمكن أن يكون عماداً للشخصية.. وللفرد.. للمجتمع.. وللحضارة..

إنها محاولة لاسترداد الضوء من قلب العتمة.. ولبعث "الرسالة" في حياة كل منا..

إنها محاولة، لكي نولد من جديد، إحدى ولاداتنا..

لكني آمل، هذه المرّة، أن تكون هي (الولادة الأهم)؛ الولادة التي تحدث فرقاً في حياتنا، أفراداً، ومجتمعاً أيضاً..

أو على الأقل: شيء كهذا..



مقدمة ثانية

رؤوس أقلام

لما يجب أن يكتب بغير القلم

١- أنصح أي قارئ أوحى له عنوان السلسلة أن فيه (وصفة ما) للخشوع، أن يوفر ثمنه لأي شيء آخر. فليس في الكتاب ما يفيده في الخشوع بهذا المعنى المباشر. هذا إن كان هناك على الإطلاق، وصفة جاهزة يمكن أن تخدم هذا الغرض أصلاً.

الأمور الحقيقية العميقة في الحياة، ومن ضمنها الخشوع - لا يمكن أن تأتي أبداً بوصفة جاهزة كما هي وصفات الأطعمة وكتب الطبخ. ربما الإرشادات والنصائح العامة تساعد بطريقة ما، لكن تلك الوصفات التي تضع نقاطاً وترقّمها، لا تؤدي حقاً إلى النتائج المرجوة منها، على الرغم من أنها مغرية لسهولتها.

٢- على العكس من الوصفات الجاهزة، فإن السلسلة تحاول أن تنقب بعيداً عن كل ما هو جاهز وسائد، بحثاً عن المعاني العملاقة المطمورة تحت مفاهيم تكونت مع

الوقت ونسبت إلى الدين والنصوص الدينية دون أن يكون لذلك النسب حقيقة. بعض هذه المفاهيم ليس سلبياً بحد ذاته، لكنها تعرضت مع الوقت لعملية جردتها من كل إيجابياتها.

٣- أؤمن، بشكل مطلق، "بثبات الشكل وتمدد المعنى"، بمعنى أن الصلاة التي أتحدث عنها هي (الصلاة) التي يعرفها ويطبقها المسلمون منذ قرون إلى اليوم، دون أي انحراف أو تحريف في شكلها ولفظها، ولكني أتحدث عن (تمدد المعاني) المرتبط بهذه الأشكال والألفاظ، وهو (تمدد) لا يلغي التراكم بالضرورة، كما أنه لا يعارضه بالضرورة أيضاً، إنه إقلاع إلى أفق أعلى، لذا فأنا هنا أتحدث عن أفق جديد لمعاني الصلاة، وهو أفق لا يلغي الآفاق الأخرى، بل ربما يزيدها سطوعاً ووضوحاً..

٤- لا أزال أؤمن بأن الأفكار عندما (تتغير) فإنها (قد) تؤدي إلى تغيير السلوك. التقليل هنا لأن ذلك، للأسف، ليس حتمياً. وأحياناً يحدث تغيير في الأفكار، دون أن يرافقه تغيير موافق في السلوك على الإطلاق، الأمر الذي ينتج تلك الهوة المعروفة بين الفكر والسلوك، التي قد تصل إلى حد النفاق أحياناً..

والحقيقة أن عملية تغيير السلوك أمر أصعب من عملية تغيير الأفكار، فهي لا تشمل الإيمان بفكرة جديدة فحسب، بل استئصال الفكرة السلبية أيضاً، وهو أمر سيكون - سلوكياً - أصعب وأعقد من مجرد الاقتناع، لأن الفكرة السلبية قد تكون لها رواسبها وجذورها المتأصلة في

اللاوعي. بينما الفكرة الجديدة ماتزال في سطح الوعي وغير مؤصلة ولا مرسخة بمفاهيم ونمط سلوك اجتماعي، كما هو الأمر مع الفكرة السلبية. مثال نموذجي على هذا، وعي المدخنين بمضار التدخين، والأخطار الصحية التي قد تنتج عنه، ولكن هذا الوعي لا ينتج بالضرورة تغييراً في سلوكهم، رغم قوة الحملات الإعلانية التي تدعوهم لذلك. و مثل ذلك يصحُّ على الكثير من العادات الغذائية الضارة صحياً؛ الناس تعلم، ولكنها مع ذلك تواصل. عملية الإقلاع والامتناع والتغيير تتطلب آليات معقدة أكثر بكثير من مجرد المعرفة والعلم، أكثر من مجرد الوعي.

٥- التدخين والعادات الغذائية الضارة هي مجرد مثال تبسيطي لما أريد الحديث عنه، الذي هو أمر أخطر وأكثر فتكاً بكثير من الدخان. فإذا كانت السجائر تسبب السرطان في هذا العضو أو ذاك، فإن الأمر الآخر هو السرطان بعينه؛ إنه ذلك الموات التاريخي والسلبية التي نعيش في حضنها كما تعيش الخفافيش في الظلمة الحالكة .إنه فقدان الإرادة وفقدان المناعة، والإدمان على حالة (اللافعل). كل ما هو سلبي مما يتجلى أحياناً، من أبسط السلوكيات الفردية (رمي القمامة مثلاً) إلى السلوكيات الجماهيرية المعقدة التي تحترف اللامبالاة تجاه كل ما يحيق بها، أو تنفس عن قلقها بطريقة عاطفية، وكل هذا ينتج إحصاءات وأرقاماً مخيفة عن تدني كل المستويات الحضارية، وهي أرقام سيئة بالمطلق أيضاً، وليس (نسبياً) فقط، أي ليس بمقارنتها مع أرقام الآخرين.

٦- تغيير هذا السلوك الاجتماعي المتردي هو عمل صعب جداً (نأمل ألاّ يكون مستحيلاً) وهو لا يقارن طبعاً بعملية الامتناع عن التدخين، وأي اقتراح بتتبع طرق الامتناع عن التدخين نفسها، لا يمكن أن يكون جاداً. فالسلوكيات التي نتحدث عنها تملك من الحصانة والرسوخ ما يجعلها تتغلب على أي محاولة من هذا النوع، وبهذا الأسلوب. لا يعني هذا طبعاً النكوص عن عملية نشر الوعي ومحاربة الفكرة أو المنظومة السلبية. لكن مجرد التصور أن ذلك كاف سيكون كافياً لقتل الأمر.

٧- بعض أسباب رسوخ وحصانة السلبية تعود إلى ارتكازها على مفاهيم تنسب زوراً وظلماً إلى الدين، أو إلى نصوص دينية مجتزأة من سياقها، أو إلى مواقف لعلماء دين كانت مجرد ردود أفعال في سياقها التاريخي. وهكذا فإن ذلك كله يتداخل مع أمثال شعبية وأقوال مأثورة وأنماط سلوك شائعة قديمة تجعل من كل ما سبق يمتلك حصانة وقداسة لا مبرر لها دينياً. بل وكل ما في الإسلام هو ضد كل هذه السلبية.

٨- جزء من القوة الحقيقية للسلبية يكمن أحياناً في السلبية نفسها؛ في كونها أسهل، في كون البشر يميلون أحياناً إلى عدم تحمل المسؤولية ويستسهلون السلب. الإيجابية فعل (مواجهة) وهو فعل يتطلب المخاطرة وقد يحتمل الخسارة كما الربح. بينما السلبية تراهن على الاستقرار، ولو في بناء آيل إلى السقوط. وهكذا تضاف

إلى القوة الكامنة للسلبية، حصانة الارتباط الزائف بالدين الحنيف.

٩- منذ أن أدرك مفكرو النهضة الأوائل عمق الهوة بين ما يريده الإسلام منا، وما نحن عليه، وهم يحاولون، بشتى الوسائل جسر تلك الهوة، بين ما يجب، وما هو حاصل، ولا يمكن الادعاء أن النتائج كانت جيدة أو حتى مشجعة. هذا إن كانت هناك نتائج على الإطلاق على مستوى النهضة الحقيقية (التي هي شيء آخر أعمق وأبعد من مجرد تنمية اقتصادية على النمط الغربي). وسيكون من قبيل الادعاء أن نقول: إننا خرجنا من القرن العشرين بشكل أفضل مما دخلناه، بل والحقيقة هي أننا خرجنا من الألفية الثانية كلها، بشكل أسوأ بكثير من دخولنا إليها أي قبل ألف سنة من الآن.

١٠- لكن هل النهضة مرتبطة بالدين بالضرورة؟ ألم يدشن الغرب نهضته عبر طلاق الدين؟.. في الحقيقة السؤال مطروح، ولكنه مغلوط، يستند إلى فرضية غير صحيحة أصلاً: فرضية طلاق الدين في الغرب. وهو ما روجته عندنا وعندهم أطراف متعددة لأسباب لا مجال للخوض فيها. لكن الحقيقة أن (النهضة) في الغرب ما كانت لتنجز أو تنطلق لولا حركة التجديد التي قام بها لوثر[١]، وتداعياتها الإيجابية على مختلف المفاهيم - حتى

(١) لوثر: مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) مصلح ديني ألماني ثار على السلطة الكنسية البابوية وتعليماتها، وأدت ثورته هذه إلى ما عرف لاحقاً بالإصلاح البروتستانتي - وأثرت على مجمل رؤية الحضارة الغربية للعالم.

عند الطوائف المسيحية الأخرى من غير البروتستانتية - الأمر الذي سهل الخروج من القرون الوسطى ومفاهيمها، ولولا هذا التجديد اللوثري لربما كان تغير وجه التنوير الأوربي. ربما تفاعلت الأحداث لاحقاً بشكل أدى إلى حدوث طلاق من الدين في بعض جوانب الحياة؛ لكن هناك أمران مؤكدان: الأول أن الطلاق لم يكن بائناً، والثاني أن (التجديد) في المفاهيم الدينية لعب دوراً أساسياً (إن لم يكن دور البطولة الرئيسي) في قدح شرارة النهضة الأولى..

١١- لا أحاول هنا الإيحاء أن علينا تتبع خطا النهضة الغربية، إنما هو لتصحيح ما هو سائد من فصل وانفصال بينهما. وأحب أن أؤكد أن الواقع الكارثي الذي نعيش فيه يجب ألاّ يعمي أبصارنا عن سلبيات الحداثة الغربية التي هي المحطة الأخيرة في التفاعل المتسلسل الذي بعثته النهضة الأوربية. واقعنا الكارثي يجب ألاّ يدفعنا إلى تقليد خطاهم (على الرغم من كارثيتنا)؛ بل يجب أن نبحث عن نهضتنا وعن خيارنا نحن، لأن طريق الحضارة الغربية ليس بالضرورة هو الطريق الوحيد الممكن، (ولا البقاء في وضعنا الراهن بالتأكيد).

١٢- أكثر من هذا، أزعم هنا أن الدين لا يمكن أن يقدح زناد النهضة فحسب؛ بل أنه لا نهضة بلا دين أصلاً. يمكن أن يكون هناك (تنمية) بلا دين، هذا وارد وحاصل. أن يحدث نمو في الاقتصاد والإنتاج ومستويات الدخل والرفاهية.. إلخ بلا دين، لكن هذا ليس (نهضة)،

والخلط بين المفهومين حاصل للأسف. النهضة أمر أعقد وأوسع بكثير، وهي قد تتضمن التنمية الاقتصادية كتحصيل حاصل، لكن لا يمكن اختزالهما معاً بعملية التساوي تلك. التنمية الاقتصادية يمكن التخطيط لها عبر (خطط خمسية) وقد تؤدي إلى تحقيق التنمية إذا تمَّ الالتزام الجدي بها. أما النهضة، فهي روح تسري في مجتمع ما، أو تبعث أمة من العدم، من الموات، السبات، روح تجعل أفراد الأمة ينصهرون معاً، ويتوقون لتحقيق أهداف ومُثُل وقيم هي أعلى بكثير من مجرد ارتفاع الدخل ومستوى الرفاهية. إنها المثل التي تجد فيها الأمة كينونتها وما تتصور أنه الهدف من وجودها.

وإذا كان الاقتصادي والسياسي يلعبان الدور الأهم في التنمية، فإن المفكر - خاصة المفكر الديني - هو من سيقوم بالدور الأهم في التحضير لشرارة النهضة؛ في منحها الطاقة الأولية اللازمة لقدح الزناد، عندما تكون سائر الأسباب والشروط الأخرى - بضمنها الفرصة التاريخية - قد توافرت.

١٣- ليس هذا فقط، ليسَ فقط، إن كل نهضة تعتمد حتماً على القيم الدينية، ولكن حتى لو لم يصح ذلك في نهضات الأمم الأخرى، فإنه لابد أن يصح معنا - لابد أن تكون نهضتنا معتمدة على الدين. ذلك أن جزءاً من أسباب ركودنا تحصن خلف مفاهيم نسبت نفسها إلى الدين، وعملية التصحيح هذه لا يمكن أن تقبل إن كانت من خارج المنظومة الدينية، لابد أن يكون التصحيح ذاتياً

ومنبعثاً من داخل المنظومة الدينية. لابد أن تطهر الأفكار الدينية الحقيقية الإيجابية كل ما علق من سلبيات في الفكر الديني السائد.. ووحده المفكر الديني سيستطيع أن يستأصل السلبي من الأفكار المتنكرة بالدين، عبر مقارعتها بسلطة النص ومقاصده.

ليس الأمر بالتجربة والخطأ.. وتكرار التجربة من أجل تكرار خطأ.. إنه جزء من طبيعة الأشياء وسننها، إنه ليس وجهة نظر: إنه ما يجب أن يحدث.

١٤- ما الذي حدث إذن مع النهضة؟ لماذا لم تحدث؟ لِمَ تمَّ اختصارها أحياناً إلى (الصحوة)، وأحياناً أخرى إلى (التنمية)؟ وقد حصلت الصحوة فعلاً، وحدثت تجارب تنموية ناجحة إلى حد بعيد في بلدان معدودة، ولكن (النهضة) لم تحدث مع أن فرصاً تاريخية، وتحديات كانت نظرياً يجب أن تحفز الاستجابة، لكن ذلك لم يحدث. ومرّت التحديات، والفرص، وكأن شيئاً لم يحدث. مفكرو النهضة، (الذين لا داعي هنا لذكر أسمائهم، على الرغم من أن تعدادها لن يستغرق زمناً طويلاً!) أنتجوا ما أنتجوه، ونزفوا فكرهم حبراً ومداداً على الورق. ولكن للأسف، وحتى الآن على الأقل - وبعد عقود طويلة من صرخاتهم الأولى، لم تثمر زراعتهم وحراثتهم في نفوسنا، كما كان يجب أن يحدث.. ليس في هذا دعوة لليأس أو لترك ما أنتجه رواد النهضة الأوائل؛ لكن التقويم المرحلي قد يساهم في تفعيل ما أنتجه هؤلاء وإعادته إلى الحياة.

١٥- ثلاثة أسباب رئيسية - في رأيي - ساهمت في

إجهاض فكر النهضة (عدا الأسباب الخارجية، التي لا يمكن تحييدها تماماً لكننا لسنا بصددها الآن)..

السبب الأول: إن فكر النهضة ركز - غالباً - على محاولة زرع ما هو إيجابي وإحيائه من النصوص الدينية، ولكن تجنب رواد هذا الفكر استئصال العوامل السلبية الموجودة، فكانوا كمن يضع بذوره الثمينة دون أن يمزق الأعشاب الضارة. أسباب هذا الموقف واضحة طبعاً، لكن كان الثمن باهظاً جداً؛ فللعامل السلبي قوة أكبر عندما يترك دون مواجهة، ولقد كان ما كان.

السبب الثاني: وجود تلك الهوة المزدوجة التي عانى منها فكر النهضة.

الهوة الأولى هي تلك الهوة بين (متعاطي هذا الفكر) أي النخب المثقفة، وبين الناس خارج هذه النخب، وأنا لا أقصد هنا مفهوم عامة الناس، بل حتى الطبقة الوسطى، والحائزة على تعليم جامعي عالٍ، لم يستطع فكر النهضة التغلغل أو حتى الوجود هناك، على أهمية هذه الطبقة وإمكاناتها الافتراضية الكامنة في أمر النهضة. قد يكون لغموض خطاب فكر النهضة واستخدام لغة فوقية يعجز عن التواصل معها أي أحد خارج تلك النخب، سبب في ذلك. وقد يكون الأمر أعقد من ذلك.

الهوة الثانية هي تلك الهوة بين الفكر والسلوك، إذ لم يحاول النتاج الفكري للنهضة - في غالبه - التوجه إلى تفعيل السلوك بما يتناسب مع هذا الفكر، أي أن يكف

الفكر عن كونه مجرد كلام، وربما حتى شعارات، ويتحول إلى سلوك تطبيقي يكون جزءاً من منظومة النهضة جميعها.

السبب الثالث: وربما كان ناتجاً عن (الهوتين) السابقتين، وهي أن فكر النهضة لم يحاول الدخول إلى مشاكل الناس وهمومها، لم يدخل في رغيف خبزها وعَرق مرقها وحليب ودواء أطفالها، بل بقي مكتفياً بالتجريدات النخبوية... والناس في البداية والنهاية تريد أن تعيش، ولا يمكن لومها على ذلك طبعاً، لذلك كان لابد للنهضة - كي تكون - أن تلتحم بمعاناة الناس وتطلعاتها؛ أن ترتبط بنبضهم وهمومهم وأرقهم وقلقهم؛ أن تفهم أن حلّ مشاكلهم لن يكون حقاً إلا عبر تلك النهضة الشاملة التي تعيد رسم الأمور من جديد. وقتها فقط، لن تصير النهضة (كلام نخب) و (صالونات أدبية) بل تخرج إلى الناس لتكونهم ويكونوها، وتصير قضيتهم الملتحمة بهمومهم اليومية.

١٦- ما دخل الصلاة، وكيمياء الصلاة، بكل هذا؟..
أؤمن الآن إيماناً جازماً، أن الصلاة هي الحلقة المفقودة التي يمكن لها، لو وظفت في سياقها الأصلي - أن تجسر تلك الهوة المزدوجة، وأن تقدح زناد شرارة تفاعل متسلسل (لا بد أنه يحتاج لعناصر أخرى لإتمام التفاعل).

الصلاة، من حيث الشكل والمضمون، تحتوي على تلك الخاصية التي تجعلها (وسطاً) بين الفكر والسلوك من جهة، ووسطاً من بين النخب المثقفة والطبقة الوسطى

(على الأقل). الناس عموماً لن يهتموا بالنهضة ومفكريها إلا في حالات نادرة واستثنائية، لكنهم يهتمون عموماً بالشعائر، خصوصاً بالصلاة، حتى لو أدّوها كيفما كان؛ بتقصير في أدائها وأركانها ووقتها، لكن الصلاة عموماً موجودة في حياتهم ربما أكثر من أي شيء آخر، وأكثر بالتأكيد من أي فكرة من أفكار النهضة. لذلك لو تمكنا من أن نبعث (شحنة) النهضة ومعانيها وقيمها في الصلاة، لو استطعنا، ولو بنسبة ما، أن نجعل من الصلاة بأشكالها وقوالبها تجسيداً لتلك النهضة، لاستطعنا أن ننزلها من برجها العاجي، والرف العالي الذي يعلوه التراب، وجعلناها أقرب إلى الفعل؛ إلى الإنسان العادي في حياته اليومية.

١٧- **بعث قيم النهضة في الصلاة ليس توظيفاً نفعياً للصلاة من أجل هدف مسبق هو النهضة**، وإن كان الأمر سيبدو كذلك للوهلة الأولى. أستطيع أن أجد، أو بالأحرى أن أتصنع، معنى نهضوياً هنا أو هناك. لكن البحث، كما سنرى، تمخض عن (منظومة نهضة) متكاملة ومترابطة في كل جزء من أجزاء الصلاة، بل في كل لفظ من ألفاظها، وهو أمر يفوق قدرتي الشخصية على التصنع ، بل على قدرة أي أحد على الإطلاق، ويدخل في نطاق إعجاز هذا الدين الذي بذلنا كل ما وفي وسعنا لخنق طاقاته وتقزيم آفاقه.

١٨- وبعبارة أخرى، فإني أرى أن قيم النهضة، ومنظوماتها كانت دوماً موجودة، وكانت فاعلة على الأقل في

الفترة التي شهدت نهوض الأمة وانطلاقها. لماذا إذن لا نجد تنظيراً بهذا المعنى؟.. لِمَ لم نجد آثاراً بهذا المعنى في أعمال السلف؟.. ربما لأن الأمر كان بديهةً، وكان أثر الصلاة عليهم محسوساً بلا تنظير، وربما لأنهم عبروا عن ذلك بطريقة و لغة مختلفة عن التي نتحدث بها اليوم، المهم أن الصلاة كانت دوماً تشكل (البنية الفوقية) للقيم، ومصدراً للحوافز ولرؤية العالم.. وكان ذلك يجعلها دوماً منصبةً نحو النهضة (حتى لو سميت النهضة باسم آخر).

١٩- كاتب هذه الكلمات لا يملك أوهاماً تبسيطية حول صعوبة كل ما سبق. إنني أعي تماماً أن التغيير عملية أعقد بكثير من استحضار معاني النهضة في الصلاة. لكني أؤمن أن ذلك يمكن أن يكون عنصراً في معادلة التغيير، على الأقل، **لأن الصلاة يمكنها أن تجعلنا فاعلين، تغير رؤيتنا للعالم، تجعلنا ندخل معادلة التغيير التي تم إقصاؤنا عنها..** كما أني أعي تماماً أن انتشار هذه الأفكار يتطلب دعماً مؤسسياً وإعلامياً، إنها كي تنتشر يجب أن تأخذ أشكالاً مختلفة، ومنابر مختلفة، وليس عندي أدنى فكرة عن (الكيف) هنا، لكني أؤمن تماماً أن الله يسخر سننه بطريقة نجهلها أحياناً، وأن كلاً ميسر لما خلق له. إنَّ دوري هنا أن أكتب، وإنَّ آخرين - ربما لا أعرفهم وربما يعيشون في قارات أخرى - سيكون لهم أدوار أخرى، فسيمفونية النهضة تنتقي نغماتها بشكل غامض، تأخذ نغمة من هنا، وإيقاعاً من هناك، حركة من هنا، لحناً من هناك، وتصبها معاً في مصبٍّ واحد وملحمة واحدة.

٢٠- بدأ الأمر كله من ذلك السؤال الذي كنت أسمعه أينما حللت من مختلف الفئات العمرية، والاجتماعية: ما العمل؟ من أين نبدأ؟.. ذلك التساؤل الذي يعكس التوق للعمل والحاجة إلى جَسْر الهوة بين الفكر والسلوك. قادنا الحوار، ذات مرة، إلى البدء بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام، يوم أنشأ الحضارة الأولى.. وكان الحديث عن "إقامة الصلاة" الذي سبق.. ومهد لإقامة المجتمع.. ثم كان ما كان، من سبعة أشهر مليئة بالضوء والزخم استغرقتها السلسلة في الإنجاز، آملاً أن ينتقل الضوء والزخم، إلى حياة الآخرين.. عبر تلك السنن الإلهية التي لا نفهمها أحياناً..

أضع نتاج تلك الأشهر المضيئة، في قُنَيْنة زجاجية، وأرمي بها في بحر الظلمات.. وكلي ثقة، أنها ستعين بطريقة ما في الوصول إلى بر النور..

الفصل الأول

"نصلي" ولكن...!

لماذا نصلي؟..سؤال غير مطروح، على الأقل ليس بصوت عال، فقد تعودنا أن نعدَّ ما هو بدهيّ لا يناقش، ولو لغرض ترسيخه وهكذا، ولأن الصلاة فرض مكتوب، ولأنها عماد الدين، ولأنها الخط الفاصل بين الكفر والإيمان، ولأن من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين"، فإننا نستبعد السؤال، ونحاول تكريس الأمر وترسيخه في نفوسنا ونفوس أولادنا، ونفوس من حولنا.. دونما محاولة البحث عن أسئلة لذلك ..فالصلاة (فرض) وهذا يكفي..

وعموماً، فإن الناس صارت تعد "الصلاة" بمنزلة هوية؛ لكون الشخص المصلي ملتزماً بأداء بعض ما افترضه إسلامه عليه، كدائرة أخص من دائرة الإسلام العام الذي يدخله المرء بمجرد أداء الشهادة.. وأداء الصلاة، هو ذلك الباب العالي الذي يجتازه المرء ليحظى بفرصة في الفوز والنجاة الأخروي..

* * *

يختلف الناس حتماً في أدائهم صلاتهم.. وأيضاً في تقويمهم لها.. وفي توقعاتهم منها، هناك فئة، ليست غالبة حتماً بمقاييس الكثرة، تحرص على أدائها في وقتها، وربما على أدائها جماعة، وربما على محاولة استحضار الخشوع في أثناء أدائها، وهناك فئة أوسع قليلاً من سابقتها، تحاول على الأقل واحدةً من هذه الأمور (الوقت - الجماعة - الخشوع)، فتنجح مرة وتخفق مرات، وهناك فئة أوسع حتماً من الفئتين السابقتين، وهي التي يكون أداؤها للصلاة سيئاً، حتى حسب تقويمها لنفسها، فالصلاة قد تؤخر إلى وقت الصلاة التالية، وقد تؤدى كنقرات سريعة، وقد يختفي التركيز تماماً، فلا يعرف ما الذي قرأه في صلاته..

وهناك فئة أوسع من كل هذه، تؤدي الصلاة (أحياناً) - وتتركها لفترات مختلفة، ثم تعود إلى الصلاة، وربما تود لو أنها تستمر، لكنها تنقطع مجدداً.. وهكذا..

وهناك طبعاً، فئة لا تصلي البتة.. ليس بسبب موقف مسبق ينكر الصلاة أو ينكر كونها فريضة، وقد يكون الكسل واحداً من الأسباب، وليس كلها.. هناك الإهمال.. هناك عدم الاكتراث.. هناك (اللا شيء) الذي يجعل بعضهم لا يلتفتون للصلاة..

كل هذه الفئات موجودة، وربما تكون موجودة بأكثر مما يطيب لنا أن نعرف، ربما يمر بها الواحد منا في مراحل حياته المختلفة، وحقيقتها الإحصائية - اجتماعياً - تمثل أن الكثيرين، مثلنا، قد يمرون بذلك في حياتهم أيضاً..

للصلاة مقاصد عديدة، وقد كتب فيها المصنفون ما لا يمكن تجاوزه، خاصةً ما صنفه سلطان العلماء (العز بن عبد السلام)..

وهذه المقاصد، ترتبط فيها الدنيا بالآخرة، في زواج لا فكاك منه، ولا طلاق فيه ..فالفصل بين الدنيا والآخرة لا وجود حقيقياً له في شريعة ترى أن "الدنيا هي مزرعة الآخرة"، وهي موضع الامتحان الذي ستعرف نتائجه في الآخرة، أي إنهما مرتبطان مثل ارتباط أداء الطلاب في قاعة الامتحان، بإعلان النتائج لاحقاً.. ولا مجال لأي نوع من الفصل بينهما.. وهكذا فإن أي حديث عن (مقاصد)، هو حديث مقاصد دنيوية أولاً، تؤدي إلى مقاصد أخروية كتحصيل حاصل وكنتيجة مرتبطة بالدنيا.. ولا يمكن الحديث عن هدف أخروي دون ارتباطه بعمل دنيوي، بإنجاز يحصل في الدنيا.. ويؤدي إلى هذا الهدف الأخروي..

* * *

على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أن الحديث عن مقاصد الصلاة ليس جديداً البتة، إلا أن معظم ما ننشأ عليه، يجرد صلاتنا من جانبها الدنيوي، ويركز على الجزاء الأخروي لها، فيجعل الثمرة بمعزل عن الجذر، ويجتزئ نصوصاً من سياقها الكبير، فيجعل من أداء (الصلاة) بمعزل عن دورها الاجتماعي (أي الدنيوي)، كما لو كنا نؤديها لمجرد الأداء - كما لو أن الهدف

المطلوب من الصلاة، هو أن نؤديها فقط، أي أن نقف في تلك الأوقات المحددة، ونقول ما نقول، ونؤدي تلك الحركات.. وينتهي الأمر هنا..

نتائج الصلاة خارج أوقاتها الخمسة

دوماً الحديث عن الصلاة، مرتبط بوقتها (المباشر)؛ أي بمجموع الأشياء والكيفيات التي تحدث في أثناء أدائها، وخصوصاً الخشوع الذي يجتاح القلب والمشاعر فيها..

لكن من الواضح، أن المقاصد الاجتماعية للصلاة، ستظهر ليس في أثناء ذلك؛ بل بعده بالتأكيد؛ أي في الأوقات الأخرى، بين الأوقات الخمسة..

ومراقبة أدائنا للصلاة ربما يتطلب مراقبة أحوالنا ليس في أثناء أداء الصلاة فقط، ولكن خارجها أيضاً..

فهذان يفترض أنهما مرتبطان معاً ارتباط السبب والنتيجة.. وعزل الواحد عن الآخر عملية عبثية تماماً، مثل تحضير عناصر معادلة كيميائية دون الاهتمام بمراقبة نتائجها..

بالضبط يحدث الأمر عندنا مثل هذا؛ نقضي وقتاً كبيراً في إعداد عناصر (تفاعل كيميائي) دون أن نحاول مراقبة نتائجه.. مراقبة النتائج واكتشاف أنها خاطئة أحياناً سيجعلنا نعيد النظر في المعادلة برمتها.. في أدائنا لها.. في كميات العناصر.. في سياق التفاعل.. في خطأ ما يحدث دون أن نتنبه له..

أما إهمال النتائج وعدم تقويمها، فسيجعل المعادلة كلها تسير في سياق خاطئ، دون أن ندري..

وهكذا قد ننتج سماً زعافاً بدلاً من البلسم والترياق..

وهذا ما يحدث مع الصلاة. إننا نهتم (على ما يبدو) بما نتصور أنه عناصرها.. ولكن ليسَ نتائجها.. ليس المقاصد منها..

ولو أننا بحثنا عن نتائج تفاعل معادلة الصلاة، لأعدنا النظر فيما نفعل..

* * *

سنتحدث عن المستوى الجماعي للصلاة، فهذا أهون كبداية، فنحن نرى دوماً أن مسؤولية الجميع هي "مسؤولية شخص آخر" أو أشخاص آخرين، لكن هذا الشخص ليسَ أياً منا..

الكم والكيف: والإعجاب بالكثرة

هناك أداء جماعي للصلاة لا بأس به، يختلف ذلك من قطر لآخر، ومن مدينة لأخرى، لكن المساجد عموماً فيها (صلاة جماعة)، وبشكل متزايد، ولو قارنّا الإقبال عما كان عليه منذ عقود، لوجدنا أن عدد المساجد وعدد المصلين فيها قد تزايد بنسب تفوق تزايد عدد السكان في هذه الفترة، صحيح أن بعض أوقات الصلاة تشهد انكماشاً في عدد مصليها (الفجر خاصة)، وصحيح أن الفكرة السائدة تركز على أن (الأمور) ستتحسن عندما يصير عدد

(مصلي الفجر) مساوياً عدد مصلي الجمعة، إلا أن هذه الفكرة (كمية) جداً، وتركز على (الكم) باعتباره الحل.. وهي فكرة غير مرتكزة، في تصوري، على أي نص شرعي.. فالنص القرآني لا يقيم للكثرة وزناً مهماً على حساب النوع، و (الإعجاب بالكثرة) في يوم حنين على حساب النوع كان سبباً من الأسباب التي كادت تؤدي إلى الإخفاق..

إذن، على الرغم من سيادة فكرة (الكم) - فالكم الموجود عند الصلاة ليس سيئاً جداً، ربما هو ليس كما نريد، ولكنه ليس سيئاً، فالمساجد عامرة في أغلب البلدان، اللهم إلا تلك التي تعد الصلاة فيها عملاً إرهابياً، عندها تكون المساجد فارغة إلا من مخبري الأمن.

إذن عدد المصلين، أمر لا يمكن التشكي منه.. و (أداء الصلاة) - إحصائياً - أمر لا يمكن إنكار زيادته وزيادة وجوده..

في ثمارها تعرفونها

هذا عن الجزء من المعادلة - المتعلق بما هو في أثناء الصلاة - فماذا عن نتائجها؟ ماذا عما هو خارج وقت الصلاة، بين الأوقات؟.. ماذا عن مقاصد الصلاة الدنيوية التي ستؤدي إلى نتائجها الأخروية؟..

حسناً.. الوضع يسر العدو ولا يسعد الحبيب. فبينما المساجد عامرة بالمصلين، فإن المجتمعات لا يبدو عليها أنها عامرة إلا بالخراب، مجتمعاتنا منخورة بحيث إنها

صارت (عامل طرد) لكل الخبرات التي تشعر أنها مهدورة في مجتمعات تضيّع كل من هو أهل لأن يخدم مجتمعه.. في المجتمعات ذات المساجد العامرة بالمصلين: هناك التأخر في كل شيء، من قمامة الشوارع، إلى وضع عام هو كالقمامة في حقيقته.. هناك كل ما هو مرفوض في ديننا، بل كل ما يراه ديننا كبيرة من الكبائر.. مجتمعاتنا تزخر بكل الآثام والفواحش؛ ما ظهر منها وما بطن.. بالإضافة إلى عدد كبير من المصلين..

* * *

للوهلة الأولى، قد يقول فريق إن هؤلاء المصلين ليسوا هم أنفسهم من يفعل هذه الفواحش، وإن هناك خطأً (اجتماعياً) يفصل بين هؤلاء، وأولئك.

ربما كان هذا صحيحاً عندما يكون ما نقصده بالفواحش هو (الزنى)، ومقدماته ونتائجه.. .. لكن أسواقنا وشوارعنا وبيوتنا ومدارسنا مليئة بأنواع مختلفة من الآثام التي يقترفها أيضاً بعض المصلين، هناك الكذب، هناك الغش، هناك الوقت المهدور، هناك الكسل، هناك البطالة.. هناك أمور كثيرة تنتمي لنوع أو لآخر من الفواحش، ومع ذلك فإن من يقترفها، هم أناس يصلون، ونحن نعرف ذلك، وهم يعرفون ذلك، وربما نكون منهم أيضاً بالمناسبة..

فهل الإنسان (المصلي) ملاك لا يمكن أن يقترف فاحشة ما؟..

لا طبعاً. هذا ظلم كبير، وانتزاع لأهم صفة تركز وتعزز إنسانية هذا الإنسان، إمكانية وقوعه في الخطأ، وقابليته للتوبة..

لكن الذي يحدث للأسف، مع المصلين، ومع الواقع الاجتماعي السيئ، شيء آخر غير هذا، غير الوقوع المتعمد في الخطأ، والعودة إلى جادة الصواب. إنه - بتكراره واعتياده - يمثل نمطاً رتيباً من السلوك، ولا علاقة له بالخطأ والتوبة..

كبيرة ألاّ تفعل شيئاً على الإطلاق

ولكي نكون صريحين أكثر، فإننا نعي على الصعيد الشخصي، أن ليس كل المصلين بمنأى عن هذه الفواحش، وأن هناك أنواعاً مختلفة من مقدمات الزنى والمؤديات إليه، وربما الزنى نفسه يقترف من قبل المصلين..

الوضع عام، وهو لا يخص شخصاً معيناً أو فرداً.. إنه يخص المجتمع المثقل بالذنوب والفواحش، مع أن نسبة المصلين فيه ليست قليلة.

وسيكون من التسطيح للأمر أن نصف هؤلاء بأنهم (منافقون)، فالأمر أعقد، والنفاق ليس متوافراً في غالبيتهم. فالنفاق يتطلب صراحة في مواجهة الذات، أي إنهم يكذبون عند الصلاة، وهؤلاء ليسوا كذلك. إنهم هنا وهناك في الوقت نفسه.. كأنهم قد خلقوا حاجزاً وهمياً بين الأمرين.. كأنهم يعيشون في عالمين منفصلين؛ يؤدون الفاحشة في واحد، ويقومون بالصلاة في آخر..

وأعوذ فأذكر، أن إلقاء القمامة كبيرة أيضاً، والخشونة والكذب في التعامل كبيرة أيضاً، وعدم فعل أي شيء في حياتك كبيرة أيضاً.. وكثيرٌ من المصلين، يقومون بكل ذلك..

العادة والعبادة : حرف واحد فقط

فما الذي يحدث بالضبط عندنا؟..

سيكون هناك جواب رائج وجاهز.. إن صلاتهم صارت (عادة)، وليست (عبادة)..

حسناً، عدم التعود على (شيء) تقوم به خمس مرات يومياً في حياتك منذ أن تبلغ سن الحلم، شيء صعب جداً، حتى لو افترضنا أن هذا هو السبب، فهو - كما يبدو لي - أمر لا يمكن تفاديه.. والسؤال لا يخص تحول العبادة إلى عادة، فهذا أمر مفروغ منه، بل يخص كيف يمكن أن نرجع العادة إلى أن تكون عبادة؟.. كيف نستطيع أن نجلو عنها الصدأ لتتوهج؟..

مرة أخرى، ما الذي حدث بالضبط عندنا؟ كيف تجاور المنكر والصلاة (التي من المفروض أن تنهى عنه) في شخص واحد يمثل مجتمعاتنا بأسرها..

هناك خمسة أسباب (شائعة) لتأدية الصلاة.. وربما كانت هناك أسباب أخرى أقل شيوعاً تندرج بدرجة أو بأخرى تحت واحد من هذه الأسباب..

كل سبب من هذه الأسباب، يخفي وراءه (فكرة)

مضمرة، عن الصلاة، وفهماً معيناً للصلاة، ولدورها في المجتمع (أو لعدم وجود هذا الدور على الإطلاق!).. ويؤدي هذا الفهم، إلى أداء هذه الصلاة.. بهذا الشكل، وهي تحمل معها هذا السبب..

فكرة (الصلاة ككفارة..)

أولها، فكرة أن الصلاة تكفر الذنوب التي تحصل بين أوقات الصلاة، وهي الفكرة التي تستمد من حديث «والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن من الخطايا ما لم تغش الكبائر»[1].

ولا جدال طبعاً في صحة الحديث، وفي ارتباطه الموضوعي أيضاً بآية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤] لكن هناك طبعاً نقطتان: أولاهما أن لفظة الكبيرة المستثناة من التكفير قد رسخت في أذهان الناس بطريقة معينة ترتكز حول عدد محصور من الكبائر (معروفة طبعاً وتدور حول الزنى والخمر وربما الربا..).. لكن هذا الفهم على الرغم من رواجه ليس صحيحاً تماماً، فالصلاة إلى الصلاة لن تكفر عنك أن حياتك كلها تضيع عبثاً، سدىً، دونما هدف.. حتى دونما محاولة إيجاد هدف.. دوماً نعتقد أن الكبائر هي بالضرورة "فعل" فاحش.. بينما هي أحياناً (لا فعل) على الإطلاق.. ربما أكبر الكبائر (أكبر حتى من الزنى!!) ألا تفعل شيئاً على الإطلاق في حياتك.. أن تأتي إلى هذه الأرض وتمضي

(١) رواه مسلم.

أثراً إيجابياً واحداً يدل على أنك مررت من هنا.. دون أن تجعل العالم أفضل مما كان يوم جئت إليه.. أو على الأقل حاولت ذلك.. شيء كهذا، لا يمكن مسحه بمجرد أداء الصلاة.. لأنه لا يندرج ضمن صغائر الذنوب..

ثانيتهما - أن الصلاة التى تكفر ما يحدث بين الصلاتين، تكفر ما يحدث سهواً، أي كأي حدث عابر، لا تخلو منه تجربة إنسانية، أما أن يكون هذا نمطاً معتاداً للسلوك، وأن نتوقع أن الصلاة ستقوم بهذا الدور، فهذا يعني أننا نخدع أنفسنا قبل أي أحد آخر.

والشيء ذاته يخص مفهوم الحسنات والسيئات: من قال: إن الاية الكريمة تتحدث عن الاستمرار في أداء السيئات من أجل أن حسنات الصلاة ستمحوها؟ من حدد هذه السيئات وحجمها التي يمكن أن تمحوها الصلاة؟

وللأسف، فإن هذا الفهم، الذي يستخدم الصلاة من أجل الاستمرار في الذنوب، هو فهم سائد جداً.. وينتشر للأسف، عن غير قصد، عن طريق بعض الوعاظ على المنابر، عندما يريدون ، عن حسن نية ، أن يروجوا لأداء الصلاة. فيقومون بالترويج دون شعور منهم، للذنوب التي من المفروض أن الصلاة ستكفر عنها.. وهكذا فإن الحديث عندما يوظف من أجل عدم التوقف كثيراً عند أخطاء السهو، يختلف تماماً عندما يتحول إلى عكازة للاستمرار في الذنوب..

فكرة (إسقاط الفرض)

ثاني هذه الاحتمالات هو فكرة (إسقاط الفرض) الرائجة جداً دونما سند من نص شرعي.. وهي الفكرة التي يقوم على أساسها بعض الناس بأداء الصلاة - على أي حال - من أجل (الفرار) من عقوبة عدم أدائها، وهم يعلمون ضمناً أنهم سيحاسبون على أمور أخرى تخص الصلاة، وقتها، خشوعها، تمام أركانها، لكنهم، على الأقل يؤدونها، ويسقطون بذلك (عقوبة تركها)..

يؤكد هذه الفكرة قراءة (تجزيئية) لنصوص عديدة، من الأحاديث الصحيحة بلا شك، ولكنها تعامل مرة أخرى بمعزل عن الصورة الأكبر التي تضم كل النصوص وتجمعها بعضها ببعض.. فحديث «أول ما يحاسب عنه المرء الصلاة» يعامل كما لو أن الصلاة التي سنحاسب عليها تؤدّى بمعزل عن حياتنا وعن المجتمع الذي نعيش فيه ودورنا فيه..

وهكذا فالنظرة التجزيئية الضيقة لهذا الحديث، ولسواه من الأحاديث ستنتج نظرة ضيقة للصلاة وأدائها، تحث على أدائها (الفيزيائي) بمعزل عن نتائجها اللاحقة..

وللأسف، فإسقاط (الفرض)، الذي يتم بهذا الأداء المجرد - المروج له دون قصد - يكاد يكون الهدف الأغلب للمصلين: **إنهم على الأقل يسقطون عقوبة ترك الصلاة**؛ لقد اجتازوا الخط الفاصل بين المصلين وغير المصلين، حسب تصورهم، وهذا بحد ذاته هدف بالنسبة

إليهم، لأنه سيخفف عنهم عذاب القبر وأهوال جهنم التي يتوعد بها غير المصلين..

وهم قد أسقطوا هذا.. حسب ما يتصورون..

فكرة (إسقاط الفرض) أيضاً تستند إلى فهم معين للفرائض والعبادات، وكون أدائها (الجسماني - الحرفي) هو المطلب النهائي منها، أي إن العبادات تؤدَّى من أجل أدائها فحسب. وينتهي الأمر عند انتهاء الأداء منها.. ولا يفترض أن يكون هناك شيء آخر وراء ذلك.. وعلى حسب هذا الفهم للعبادات، يتم فهم عشرات الأحاديث والنصوص، فينظر إليها من خلال هذا المنظار ذي البعد الواحد: الذي لا يرى غير السطح من كل شيء.. فأحاديث نبوية شريفة مثل: «خير الأعمال الصلاة على وقتها» - أو: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة».. إلخ، سَتُحال فوراً وفق هذه النظرة الفيزيائية الجسمانية إلى أداء الصلاة - دون محاولة النظر إلى بقية أجزاء الصورة التي ترسمها النصوص بمجموعها..

وعندما تقتصر النظرة على هذا (الأداء المباشر) فإن (الأداء المباشر) سيكون هدفاً نهائياً في رؤوس كثيرين، وإن عرفوا ضمناً أن هناك (أموراً) يجب أن تتضمن في هذا الأداء (مثل التركيز، أو الخشوع)، لكنهم مقتنعون أن مجرد (الأداء) سيسقط الحساب العسير عن عدم الأداء..

وهكذا فإنهم سيجتازون السؤال الرهيب عن الأداء ويواجهون بقية الأسئلة.. وسيحلها يومها حلال.. متجاهلين

أن "سؤال الصلاة" قد يحتوي على تفاصيل غير متوقعة.. وتخص "ما وراء الصلاة".. أو عمقها..

فكرة "الصلاة من أجل الراحة النفسية"

ومما لا شك فيه أيضاً، أن الصلاة، كهدف ثالث، يمكن أن تبعث على الراحة النفسية..

أناس كثيرون، سيشعرون بشيء مقلق، يخِزُ ضمائرهم أو يدق على رؤوسهم، إذا ما فاتتهم صلاة ما، أو إذا ما استيقظوا متأخرين وهرولوا ليلحقوا بعملهم دون أن يؤدوا الصلاة، وسيكون ذلك مزعجاً مثل خشبة صغيرة عالقة بين أسنانك، ليست مؤلمة حقاً؛ ولكنها مزعجة ولن تتخلص من إزعاجها إلا بالتخلص منها..

كذلك عدم أداء الصلاة، بالنسبة إلى بعضهم على الأقل، إنه مزعج لدرجة تجعلهم غير قادرين على مواصلة أعمالهم.. أو المضي إلى النوم..

لذلك فهم يتركون أسرّتهم، أو ما كانوا يفعلون.. ويصلون..

ثم يعودون.. وقد زالت تلك الخشبة العالقة..

لكن، مقصد الصلاة أكبر بكثير من ذلك، ألن تكون كل (عادة) - مهما كانت - صعبة عند تركها؟.. ألن يكون ترك عادة تنظيف الأسنان الصباحي صعباً ولو لمرة واحدة؟ وسيظل من أرغم على ذلك منزعجاً يحرك لسانه على أسنانه ذات اليمين وذات الشمال ليتخلص من شعوره ذاك؟..

كل عادة، خاصة إذا كانت قد نقشت على حجر

الطفولة، ستؤمن نوعاً من الراحة النفسية عند أدائها، إنها تصير جزءاً من الذات، وسيكون مؤلماً حتماً تركها.. كما أي عادة..

لا أقصد هنا تشبيه الصلاة - ذلك الركن العظيم من أركان الدين - بمحض العادة، ولكني أريد أن أجرد أفكارنا من أوهامها حول الصلاة، فالراحة النفسية التي سيختارها بعض الناس سبباً من أسباب الصلاة، قد تكون (نتيجة) وليست سبباً، نتيجة لتعودنا عليها، ولنشأتنا على ضرورة الصلاة..

فكرة "التواصل معه - عز وجل - "

ومما لا يمكن نكرانه، أن هناك فئة من المصلين، تستطيع فعلاً، أن تحقق عبر صلاتها تواصلاً ما، معه سبحانه وتعالى، وتلتذ بمناجاته، وتجد في الصلاة (كوة) تنسحب إليها من معركة الحياة، وفي هذه الكوة نوعٌ من الأمان والراحة النفسية والتوازن..

هذا لا يمكن إنكاره، لكنها فئة تكاد تكون مهملة إحصائياً..

وحتى لو لم تكن مهملة إحصائياً، فإنه من غير المؤكد، أن الهدف من الصلاة - هو هذا التلذذ الفردي جداً، الشخصي جداً.. هناك حتماً ما هو أهم من ذلك.. لكي تكون الصلاة "عماداً" للدين..

وحدّاً فاصلاً بين "الإيمان" و "الكفر"..

لا، ليست (كوة) ننسحب إليها.. لننعم بقليل من السكينة، لا بد أن يكون هناك "شيء" آخر..

يفترض أن تكون "ركناً".. وليست كوة...

* * *

لا يمكن إنكار أن (الصلاة) تبعث على الراحة النفسية والتوازن الداخلي؛ لكن يمكن - بالتأكيد - مجادلة أن ذلك هو الهدف الأصلي منها.. والأمر هنا يتعلق بما هو أكثر من العبادات، بل بالنظرة إلى الدين "ككل"، فهناك فعلاً نظرة تاريخية، تجعل من الدين وسيلة من وسائل (الراحة) و (السكينة) و (الطمأنينة)، وعلى الأخص وسيلة تسهل التعايش مع واقع صعب.. ومع كل الاحترام لبعض الأديان التي (وظفت) تاريخياً داخل هذا السياق، فإن هذه الوظيفة لا تنطبق على الدور التاريخي الذي قام به الإسلام عند ظهوره؛ فقد كان أي شيء باستثناء "تسهيل التعايش مع الواقع الصعب"، ولو أنه كان كذلك، لبقي المسلمون الأوائل مجرد فئة "صابئة" في مكة، ولما كان أحد سمع بهم، ولما كنت أكتب الآن ما أكتب: أي إن التاريخ كله كان سيسير باتجاه مختلف تماماً..

لا ريب أن (الصلاة) تمد براحة معينة. لكنها راحة تمتزج مع القوة؛ إنها راحة الشخص القوي الذي أخذ وجبة من الطعام الطبيعي المليء بالفيتامينات والحديد.. وشعر بالراحة المنبعثة من ثقته بنفسه وبقدراته، وليس

بالراحة المزيفة التي سيشعرها شخص تناول مخدراً ما أنساه آلامه وأوجاعه وهموم واقعه..

إذا كانت الصلاة تبعث على الراحة، فهي مثل راحة ابن حنبل بمواجهة جلاديه، وابن تيمية ضد سجانيه، وابن رشد بمواجهة خفافيش عصره، وليس مثل راحة شاب عاطل عن العمل يشخر في انتظار الصلاة لكي تساعده الصلاة على تحمل واقع البطالة الذي يعيشه..

فرض وكفى!

وهناك طبعاً الرد الأكثر شيوعاً والأكثر بساطة عندما نسأل عن السبب في الصلاة..

"إنها فرض، وكفى".. سيكون هذا شائعاً جداً..

وهي فرض بالتأكيد. وليس التشكيك في "فرضية" الصلاة بوارد هنا.. والبحث عن سبب لكون هذه الفريضة بهذه الدرجة من الأهمية، سيكرس أهميتها ويفعلها.. أما عندما تصطدم بهذا الرد: "إنها فرض وكفى".. فأنت تعلم قطعاً أنها صلاة تؤدى من أجل "إسقاط هذا الفرض"، وكفى..

كون الصلاة "فرض، وكفى" يعكس فهماً معيناً يجعل أوامر الشريعة "بلا أسباب"، وإنما هي أوامر وكفى، دونما مقاصد، دونما أهداف.. فقط أوامر علينا أن ننفذها بحرفية "مفرغة" من الفهم..

والنتيجة هي ما نرى.. النتيجة هي كل ما حولنا..

الصلاة عامل طرد بدلاً من أن تكون عنصر جذب

سيقولون: لا يعجبك شيء إذن.. وتصقبها من كل الجهات. يا أخي كثير من الناس لا يصلون أصلاً، فإذا صلّوا جئت أنت لتتفلسف عليهم بكلام يكاد يجعل صلاتهم مشكوكاً بها؟..

يا أخي ساعدهم على أداء ركعتين قد تنقذهم من جهنم، بدلاً من هذه "الفلسفة"..

* * *

قد لا يكون من التفلسف في شيء، أن أقول: إن صلاتنا نحن المصلين وبهذا الشكل الذي نؤديه في القالب، أي شكل إسقاط الفرض بطريقة أو بأخرى، هو أكبر "عامل طرد" نبعد به "غير المصلين" عن الصلاة..

لا أقصد هنا طبعاً تلك الفئة من الناس التي ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/٢٣]، وهي الفئة التي ستظل تكابر وتعاند وترفض حتى لو رأت كل معجزات الأنبياء، وأمام عينيها رأي العين ..

ولكني أقصد فئة أخرى، ربما تحتاج أن ترى أقل من معجزات الأنبياء، تحتاج أن ترى "صلاتنا" مجسمة في "خارج أوقات الصلاة"، في جعلنا أشخاصاً أفضل منهم، أفضل مما نحن عليه، أشخاصاً تجعلهم صلاتهم "نموذجاً" يغري بالاقتداء..

لكن تعرفون كيف تجري الأمور، فصلاة تؤدى لغرض "إسقاط الفرض"، أو فقط "لأنها فرض".. لا يمكن أن تجعل منا نموذجاً لأي شيء..

على العكس، بعض هؤلاء، يتخذ من "ذلك" "حجة" لعدم الصلاة، إنه يدعي أن سلوك بعض "غير المصلين" أفضل من سلوك "بعض المصلين".. وهذا يجعل الصلاة في رأي هؤلاء.. غير ضرورية..

وهذا ليس عذراً، لكنه حجة..

وأخشى أنها حجة، نتحمل "نحن" جزءاً منها..

* * *

ومرة أخرى، وقبل أن يتبادر إلى الذهن أن السلوك الذي يجب أن يصاحب "الصلاة" هو سلوك "حمامة المسجد" فقط، أنبه إلى أن حمامة المسجد أحياناً يجب أن تكون نسراً يحلق في الأعالي، أو نورساً يدل على اليابسة، أو هدهداً يبحث عن الحقيقة..

بعبارة أخرى: إن صورة المؤمن "الهين اللين" الذي "لولا التشهد لكانت لاؤه نعم" هي ليست الصورة النموذجية دوماً، فأحياناً على المؤمن أن يقول: لا، تجاه كل ما يحاول سلب عبوديته منه له عز وجل..

* * *

إذن الأمور سيئة لهذا الحد؟..

لدرجة أن صلاتنا صارت حجة لعدم الصلاة..

ماذا فعلت صلاتنا بنا؟.. بل ماذا فعلنا نحن بها؟

كيف استطعنا أن نجعل منها "العكس" و "الضد" تماماً مما يجب أن تكون..

كيف جعلنا من صلاتنا مجدافين مكسورين يثبطان همة كل من يراهما، بدلاً من أن يكونا جناحين يخوضان في الأعالي.. ويطيران في القمم؟..

أي شيء سكن في رؤوسنا وجعل من فكرتنا عن "الصلاة" بهذا التدني؟..

أي شيء جعل من "عماد الدين".. مجدافاً مكسوراً؟..



الفصل الثاني

الأعرابي المجهول

عبر تاريخ طويل، مررنا بهزائم وانكسارات، تركت آثارها فينا، بل حفرت في داخلنا أخاديد جعلتنا نقنع بأقل القليل.. بل لا نطمع إلا بأقل القليل..

وهكذا، فهمنا كل شيء من زاويته الأضيق.. والأدنى.. ولم نعد نتوقع من أنفسنا إلا ما هو متدنٍّ ورديء..

فقدنا احترامنا لأنفسنا، وتدنى تقويمنا لها ولإمكانياتنا.. لم نعد نتوقع من أنفسنا أي شيء إيجابي، كما سيفعل شخص أدمن الهزيمة وصارت هويته اللصيقة به..

لم نعد نرضى بأوساط الحلول فحسب.. بل صرنا نرضى بالفتات.. بل نطالب بالفتات.. نفاوض من أجل الفتات.. بل ما هو دون الفتات..

في كل شيء..

حتى فيما نتوقعه من الصلاة..

حديث الأعرابي

جاء في الصحيح، أن أعرابياً جاء إلى النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام - يسأله عن الإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع» فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلح إن صدق»..

* * *

هذا الحديث، الذي يروي هذه الواقعة، وسؤال الأعرابي وجواب النبي عليه الصلاة والسلام، صار يحتل موقعاً مركزياً، في فكرتنا، ليس عن الصلاة، وعن العبادات عموماً فحسب، ولكن عن أنفسنا، وعن رؤيتنا للعالم ودورنا فيه.

كانت واقعة واحدة (وهناك حادثتان أخريان تشبهانها سنأتي عليهما أيضاً) ولكنها أخذت حيزاً أكبر مما يجب في فهمنا ورؤيتنا..

* * *

سيقولون: قف عندك !، الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: «أفلح إن صدق».. وهذا بحد ذاته إنجاز

كبير كل واحد منا يستحق أن يدفع حياته ثمناً له.. من أجل آخرة فيها الفلاح..

«أفلح إن صدق» ليست قليلة أبداً، وارتباط الفلاح هنا بالصدق قد يتجاوز عبارة الأعرابي الأخيرة: لا أزيد عن هذا ولا أنقص - إلى الصدق في جوهر الأداء.. الصلاة.. والصيام.. والزكاة..

على الرغم من هذا، فإن علينا أن نتفحص الواقعة بمجملها، قبل أن نجعل منها رؤية ثابتة للعبادات، ولأنفسنا، ولعلاقتنا بالعالم كله..

موقع الأعرابي من الإعراب

في غمرة احتفالنا بأننا سنفلح لو لم نزد على هذا ولم ننقص.. ننسى أن الرجل الذي سأل، والذي كان رد الرسول الكريم موجهاً له، كان له "وضع معين" ربما لا يناسب التعميم الذي تعرض له جواب الرسول الكريم صلوات ربي و سلامه عليه..

بعبارة أخرى، كانت عبارته - عليه أفضل الصلاة والسلام - تخص الرجل، ولم يصعد الرسول على المنبر ليقول ما قاله للرجل على الملأ..

وعندما نقل رواة الواقعة الحديث، فإنهم نقلوا لنا أيضاً خصوصية وضع الرجل.. التي ربما ارتبطت بها خصوصية الجواب..

أي خصوصية؟ لم نعرف عن الرجل أكثر من كونه

أعرابياً!.. بالضبط.. هذا هو.. إنه أعرابي.. وإننا لم نعرف منه أكثر من هذا، هذه هي خصوصية الرجل..

* * *

كان الأعراب، أعداءً أساسيين للدعوة الإسلامية، ليس لأنها دعوة جديدة قد يرفضها أي قديم ومكرس فحسب، ولكن لأن جوهر الإسلام يتنافى ويتصادم بشكل مباشر مع حياة البداوة والأعراب.. حياة التنقل في الصحراء دون وجود تنظيم اجتماعي واسع غير رابطة العشيرة التي جاء الإسلام ليفك أواصرها و يعيد صهرها.. كان الإسلام في جوهره "تمدناً" وتكريساً لقيم المدينة بكل ما تعني من استقرار وبناء وازدهار.. وكانت البداوة عيشاً على الهامش، على هامش الهامش، ضد أي قيم مدنية.. ضد أي تمدن..

ولأن هذا "العيش على الهامش" كان يأخذ شكل قطع الطريق على القوافل التجارية، وغير التجارية، وكان يرفض الانصياع لسلطة القانون، وبالذات لقانون الدولة المركزية الآخذة ببسط سيطرتها بالتدريج، فقد كانت البداوة بمنزلة عدو رئيسي، على التمدن الديني أن يزيحه.

ولهذا، فإن المعايير التي كانت ستوجه نحو الأعراب، هي مختلفة بطبيعة الحال عن المعايير التي توجه لغيرهم، من سكان المدينة أو مكة أو الحواضر الرئيسية وما حولها..

فالمعيار الأساسي مع الأعراب هو "كف أذاهم"، هو تحييدهم عن كونهم عقبة بوجه المسيرة، ولذلك جاءت

الآيات الكريمة منددة بالأعراب عموماً ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩/٩٧]، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٤]، وكذلك الأحاديث الشريفة التي كانت تعد العودة إلى البدو، بمنزلة العودة إلى الكفر..

ضمن هذا السياق كله، وعندما يأتي (أعرابي ما) ليسأل الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - عن الإسلام، فيتحدث الرسول عن العبادات المفروضة، بطريقة يفهمها هذا الأعرابي، ويتعلم من خلالها انضباطاً ما كان قد خطر في باله أن يتعلمه.. ويفاوض على أنه "لن يزيد على هذا ولن ينقص"؛ فإن هذا بحد ذاته إنجاز مهم لو وضعناه في سياقه الاجتماعي.. إنه أعرابي!.. ينتمي إلى تلك الفئة التي هي أشد كفراً ونفاقاً، المتمردة على أي انضباط، التي تعيش على السلب وقطع الطريق.. وعندما يأتي ليسأل عن الإسلام، ويعلن أنه سيلتزم ببنود الطاعة المفروضة "بلا زيادة ولا نقصان"، فإن هذا كله سيفسر ما قاله الرسول الكريم، الذي هو أصدق من قال: "أفلح إن صدق".. فمجرد انتقال الرجل من طور البداوة إلى طور آخر.. عبر إعلانه الالتزام بالفروض المكتوبة: يستحق أن يكون فلاحاً مثمراً.. إن صدق..

* * *

فلنتذكر هنا كيف وصف الحديث الرجل: (أعرابيٌّ).. لقد بقي مجهولاً، ربما كان صدق، وربما لا، لا نعرف،

وسيبقى علم ذلك عند الذي يعلم ما في الصدور، لكن المؤكد أن الرجل ظل مجهولاً، لم نسمع عنه شيئاً بعدها، ولو كان قد فعل شيئاً لكان ذلك "علم" عند الصحابة ورواة الحديث وذكروا اسمه..

لكنه لم يحدث..

ولن نتوقع من شخص قال إنه "لن يزيد على هذا ولن ينقص" أن يترك أثراً ما لاحقاً..

لكننا لا نعرف شيئاً عن هذا..

صار الأعرابي قدوتنا

الذي حصل معنا، أننا تعاملنا مع الحديث، لاسيما مع شرح الرسول الكريم للأعرابي، و مع جملة الأعرابي الختامية وتعليقه - عليه الصلاة والسلام - عليها، بمعزل تام عن كل السياق.. سياق أن الرجل أعرابي، وأن المعايير التي ستوجه له ستكون أدنى وأقل، لأن تحييده من دوره التقليدي كأعرابي هو بحد ذاته منجز مهم..

الذي حصل معنا، أننا ضربنا السياق عرض الحائط، وجعلنا من هذا الأعرابي المجهول قدوة لنا، عبارته التي لا تخلو من خشونة في حضرة النبي الكريم: "والله لا أزيد على هذا ولا أنقص" صارت بمنزلة هدف أعلى لنا وإن كان غير معلن.. لكننا ضمناً نمارسها، نتصور أن الفلاح ماكث بانتظارنا عند عدم الزيادة وعدم النقصان، كما لو أن معيار الأعرابي يصلح لكل زمان ومكان، كما لو أن الصحابة كلهم - وهم الذين بنوا العالم الجديد على

أنقاض العالم القديم المتهاوي - قد طبقوا معيار (اللازيادة واللانقصان) وفهموا الإسلام على أنه أداء جسماني للشعائر فقط..

لو أن ذلك الجيل - الذي قاد العالم - قد فهم ما فهمه الأعرابي.. وقرر ما قرره الأعرابي.. لما كان قاد العالم أصلاً، لأنه كان رضي، منذ البداية، بأقل القليل.. بالحد الأدنى من الأمور.. بالحد الذي بالكاد يجعلك تنجح بصعوبة..

لو أن هذا الجيل كان كله مثل ذاك الأعرابي، لما كان صار ذلك الجيل بالأساس.. ولما كان قاد العالم.. وربما - مرة أخرى - لكان التاريخ تغير.. وسار في طريق آخر..

لكن ذلك الجيل، لم يفهم الأمور، ولم يأخذها كما فعل ذلك الأعرابي..

* * *

أما نحن، فقد فعلنا.. وانتهى بنا الأمر، كما انتهى بالأعرابي، بأن نكون (مجاهيل) - (نكرات).. لم نفعل شيئاً يدخلنا التاريخ، بل بقينا على هامش الهامش، كما ذلك الأعرابي - الذي هو أفضل منا ضمن سياقه، لأن المطلوب منه كأعرابي كان هذا لا غير - أما نحن، فقد (اخترنا) أن نعكس السياق وندخل ضمن طور هو أشبه بطور البداوة..

لقد اخترنا فهم (أعرابي ما).. وجعلنا جملته الفظة شعاراً لنا..

وانتهينا كأمة من الأعراب.. على هامش الهامش.. صرنا أنصاباً تذكارية لذلك الأعرابي المجهول..

أحاديث أخرى...

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري، رضي الله عنهما، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أأدخل الجنة؟ قال: «نعم». رواه مسلم.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة.. فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم» رواه البخاري.

* * *

لا نعرف إن كان الرجل الذي سأل النبي الكريم "أرأيت إذا صليت المكتوبات" كان أعرابياً هذهِ المرّة.. لكننا نعرف أنه كان مجرد (رجل ما) لم يذكر له اسم ،لم يكن له دور ما يجعل من روى الحديث يذكر اسمه.. لقد كان رجلاً جعل من هدفه أن يصلي المكتوبات فحسب، ويصوم رمضان.. ولم يتصور أن في إمكانه أن يقوم بما هو أكثر من ذلك، ليس في عدد (صلوات) أكثر، أو صيام أيام غير رمضان.. بل في (فعل) يتجاوز الأداء المجرد إلى آفاق أكبر وأوسع وأعلى..

كان رجلاً ما، متوسط الإمكانات متواضعها، ولم يتصور أن بإمكانه اختراق (العقبة) في أعماقه، ربما كان بإمكانه ذلك لو أنه حاول، لكن فكرته عن نفسه، رؤيته عن إمكاناته وحدوده جعلته لا يتصور ذلك.. لا يحاول.. ويظل مجرد أحدهم.. رجل ما.. مرَّ في ذلك التاريخ.. لكنه مرَّ دون أن يترك أثراً يدل عليه.. دونما بصمة، دونما اسم حتى..

* * *

لا يتوقع أبداً، أن يكون كل فرد في جيل النهضة، يمتلك المواصفات النهضوية القائدة نفسها.. هناك أشخاص سيكونون حتماً في قعر السباق، كجزء من آلية تنافس تحتم أن يكون هناك من يتخلف عن الركب.

وقد جاءت تلك الأحاديث، لتنقل لنا نماذجَ من فئة، اختارت، بوعي أو من دون وعي، أن تكون في آخر الركب.. أن تكون (لا أحد) - ألا تترك أثراً.. ألا تسجل أسماؤها في التاريخ..

* * *

ومن سخريات الأمور، أننا اخترنا هذه النماذج تحديداً، لتكون القدوة الحقيقية لنا، حتى لو لم نعلن ذلك.. لكننا، تفاوضنا مع متطلبات الشريعة الغراء، كما تفاوض ذلك الأعرابي، وأخذنا ما قاله عليه الصلاة و السلام سنداً لكي "لا نزيد ولا ننقص"..

ما كان آخر الركب، في جيل النهضة.. صار القدوة!..

هل عجيب بعد ذلك أن نبقى ننتظر نهضةً.. لا تأتي أبداً؟..

* * *

عندما تعيش طوال عمرك تحت سقف واطئ لدرجة أنك تضطر لحني ظهرك حتى تسير فإن هذا السقف الواطئ سيصير مع الوقت هو حدود طولك، سيتكيف ظهرك مع هذا السقف، سيحدودب، ستنحني (كلك).. وستصير، مع الوقت، على مقاس ذلك السقف الواطئ.. حتى لو أزيح السقف، حتى لو تفجر، وصارت السماء هي الحدود المفترضة.. فإنك ستظل محني الظهر، على مقاس ذلك السقف الواطئ.. لقد تشكلت على أساسه، تقولبت بحدوده.. ولن يكون من السهل أن تتطاول لتتجاوزه..

هذا ما فعلناه بالضبط، عندما اخترنا فهم ذلك الأعرابي المجهول لنجعله حدود قامتنا.. لنجعل اختزاله ومفاوضاته هي كل ما نساوم من أجله.. لقد اخترنا سقف خيمة واطئة جداً، لتكون حدوداً لرؤيتنا عن الصلاة..

هل يكون عجيباً بعد ذلك كله.. أننا صرنا أمة أعراب؟..

نبحث عن خيط النور، لعله يقودنا إلى الفهم الآخر الذي يقودنا إلى الغد الآخر..

نبحث عنه، في ذلك الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل..

ونعلم، عندما نبحث، أننا سنجد هناك: النور، وأكثر..

الفصل الثالث

علم اجتماع "الصلاة"

ما إن نتحدث عن الصلاة، أو عن أداء الشعائر بوجه عام، حتى نواجه بنظرة استصغار من بعض الناس، واستهزاء من بعضهم الآخر..

والاستصغار أحياناً يأتي من أشخاص مسلمين، وملتزمين أيضاً، لكنهم ينتمون لتلك الفئة المثقفة، التي تتحدث عن إسلام خاص بها ، إسلام النخب التي اتخذت من البرج العاجي مسكناً ومستقراً لها، حيث الإسلام هو حوار عن صراع الحضارات والحداثة واستيعاب الإسلام لها، أو عدم استيعابه لها.. إلخ.

أما الصلاة والأمور الأخرى المماثلة، فهي أمور ثانوية من وجهة نظرهم ، وتخص عامة الناس وبسطاءهم، حتى كأن ثقافتهم أسقطت عنهم "الفرض"، كما أسقط الشطط والغلو في التصوف (الفرض) عن قدامى غلاة المتصوفة.

وأحياناً يأتي الاستهزاء من طرف آخر ومختلف تماماً، ذلك الطرف الذي لا يؤمن بالدين من الأساس، أو الذي يقول: إنه يؤمن بروح الدين، وليس بتفاصيله (مهما كان

ذلك يعني!).. ولذلك فهؤلاء سيقولون لنا: إن الصلاة مكانها القلب، وليس أي مكان آخر، وسيؤكد بعضٌ منهم أنهم يناجون الله - عز وجل - طوال الوقت، وأنهم يصلون أكثر من أي شخص آخر، لكنها صلاة (بطريقتهم هم..)، إن كانوا يصدقون، فلربما يعدّون حديثهم مع أنفسهم حديثاً معه، عز وجل، كل شيء ممكن مع انعدام تعريف واضح لأي شيء عند هؤلاء..

وغير هؤلاء، وفي الفئة المستهزئة نفسها، هناك فئة (ستفترض) أن الهدف من الشعائر هو الأخلاق القويمة العامة، حسن التعامل مع الآخرين، وبما أنهم (يفترضون) أنهم قد حازوا هذه الأخلاق الحسنة، فإنهم يبنون على الارتباط بين الافتراضين: على سقوط فرض الصلاة.. أو الشعائر ككل.. ويشبه هذا من يفترض أن الأرض مسطحة، ويبني على افتراضه هنا أنه يمكن له أن يصل إلى نهايتها ليطل على الفراغ المطلق!..

والحق، أن الفئتين، على اختلاف منطلقاتهما، تسكنان معاً في الفراغ المطلق الذي لن يؤدي إلى أي مكان..

فالتصور أن الشعائر بأركانها وهيئاتها مقصودة ليس لذاتها وإنما لمقاصد أخلاقية، مساو بالضبط، في سطحيته وتسطيحه، للتصور أن الشعائر مقصودة لذاتها فقط، دونما وجود أبعاد اجتماعية وثقافية وحضارية لها.. فالفصل بين الأمرين فصل لتوءمين سياميين يمتلك أحدهما دماغاً والآخر قلباً، سيكون فصلهما حكماً بالإعدام عليهما معاً..

(فرسان العقل) مروا .. ولكنهم لم يتركوا أي أثر..

في الوقت نفسه، فإن أولئك المثقفين، الذين يجيدون الكلام والتنظير في القضايا الكبرى في الندوات والقاعات المغلقة، يتجاهلون الدور الحقيقي للشعائر في تطور ومسيرة المجتمعات، بل إنهم يتجاهلون ، أن عجزهم عن تضمين الشعائر للمعاني العميقة التي يتحدثون عنها في جلساتهم، هو سبب رئيسي من أسباب اضمحلال دورهم وكونهم محصورين في البرج العالي لا أكثر ولا أقل..

فعبر التاريخ الإسلامي، ظهرت فرق كثيرة مثلت اتجاهات مختلفة، وبعضها (مثل المعتزلة) كانت تعد (نخبة مثقفة) (وكانت تمثل اتجاهاً عقلانياً لا يمكن إنكاره وإن اختلفنا معه في بعض الأمور)، واستطاعت هذه النخبة أن تصل إلى السلطة لفترة ما في العصر العباسي، وفي واحدة من أكثر فترات هذا العصر ازدهاراً وقوة، ولكنها عندما أطيح بها عن السلطة، أزيحت من التاريخ كله، ولم يبق لها اليوم أي أثر في الفكر الإسلامي بامتداداته الشعبية الذي لا يزال يمارس فعالية.. لقد كانت بعيدة عن الجماهير يومها، وظلت كذلك، وكان لابد لهذا البعد عن الناس العاديين، أن ينتهي إلى هذه النهاية..

و(البعد عن الناس) هي عبارة عن وجه آخر للبعد عن الشعائر التي تهم بسطاء الناس ويمارسون تدينهم من خلالها، وقد عجز المعتزلة، في خضم اهتمامهم بالقضايا

الكبرى المعقدة و (الافتراضية أحياناً) ،عن التفاعل مع الشعائر الدينية، أو حتى في ضخ معاني عقائدهم في الشعائر، وبذلك ظلت هذه المعاني بعيدة عن الناس حبيسة الكتب والمجلدات على الرفوف..

وكان ذلك يعني موتها الأكيد..

وعلى العكس من المعتزلة، فقد كانت هناك فرق تمثل الضد من التيار العقلاني بكل المقاييس، فرق كانت عقائدها تمثل الخرافة والانحراف عن كل ما جاء به الإسلام.. و لكن هذه الفرق تمكنت من تضمين (عقائدها) تلك في شعائر.. ونزلت الشعائر إلى الناس وحياتهم اليومية فكانت بمنزلة (حصن) لهذه العقائد عبر القرون على الرغم من خرافية هذه العقائد وسلبيتها وتجاوز الزمن لها...

الشعائر : ثابت في تاريخ متغير

كانت الشعائر، عبر تاريخ الإنسانية، ثابتاً في كل المجتمعات البشرية، أقصد هنا بالشعائر، بغض النظر عن نوعية (المعبود) سواء كان حجراً أو طوطماً أو شجرة أو برقاً، او حيواناً ما، أو فكرة هلامية تضم ذلك كله.. أو المعبود الحق.. الإله الواحد الأحد الفرد الصمد.. على الرغم من اختلاف المعبود الذي توجه إليه الشعائر، إلا أن الشعائر بحد ذاتها، وباختلاف طبيعتها ظلت موجودة، تتغير أشكالها وتتضاد، كما يتغير المعبود؛ تكون رقصاً حول النار مرة، أو تأملاً خاشعاً، أو طقساً يختلط فيه

الفحش بالعبادة، أو غناء رتيباً أمام شروق الشمس، لكن الشعائر ظلت موجودة في عمق التجربة الإنسانية.. طوال مسيرتها، من أقاصي جبال التبت، إلى مجاهل إفريقية، مروراً بمراكز الحضارة الكبرى،كانت الشعائر موجودة، ربما كان هناك، في كل وقت، شرذمة مثل هؤلاء، يستصغرون الشعائر، ويستهزئون بها، ويقولون: "المهم هو ما في القلب".. وكانوا ينتهون ويندثرون، وكانت بعض الديانات تتغير و تذبل، ويتبدل شكل المعبود، موضوع العبادة..

لكن الشعائر، ظلت موجودة..

* * *

الشعائر التي ظلت قائمة، لم تقتصر يوماً على الدين والتعبد لمعبود ما (أو لمجموعة معبودات) لكنها اشتملت أيضاً على شعائر، أو طقوس، في صميم الممارسات الاجتماعية.. مثل الزواج والولادة والموت والبلوغ وتنصيب الملك أو شيخ القبيلة والحرب.. وكانت هذه الطقوس - مع طابعها الاجتماعي - لا تخلو أحياناً من توجه للمعبود، حسب درجة تدين المجتمع.. لكن الأساس في هذه الممارسات الطقوسية - الشعائرية كان اجتماعياً..

وهذا يعني، أن ممارسة الشعائر ليست مرتبطة بالضرورة بالتدين، وبالحاجة العميقة إلى الدين، أو إلى دينٍ ما، التي لا نشك في وجودها في أعماق النفس الإنسانية..

تعرف الشعائر والطقوس بوصفها "حركات ضمن نسق معين متكرر ومرتكزة حول رمز ما" موجودة دوماً في

التجربة البشرية، ترتبط بالدين أحياناً، وتنفصل عنه في أحيان أخرى: لكن هذه الطقوس، - أو المراسيم - أو الشعائر، بمعنى أدائها المتكرر المرتبط برمز ما - كانت مصاحبة للإنسان، ما دام هذا الإنسان يسكن في مجتمع ما..

أي إنها موجودة - ما دام الإنسان فارق بدائيته.. وتطورا..

الميل إلى الشعائر كتعبير عن هوية المجتمع

ما سر هذا الميل الإنساني إلى تكوين الطقوس والشعائر؟.. ما حقيقة دوافعه وجذوره.؟.

لعقود طويلة، كان الباحثون في علم الاجتماع، يركزون على (الوظيفة الاجتماعية) لهذه الطقوس، باعتبارها تلعب دوراً في تماسك المجتمع، وفي إظهار (الهوية المستقلة) لهذا المجتمع ولأفراده الذين يمارسون هذه الطقوس.. ولعله من نافلة القول أن هذا الدور الاجتماعي للطقوس هو أمر لا يمكن إنكاره.. وهو أمر لا داعي لإنكاره، إنه مهم فعلاً، ولأنه لا يمكن لمجتمع أن يستمر دونه..

لكن، العلوم عندما تنفتح بعضها على بعض تتجه نحو آفاق أبعد، ربما لا تلغي الآفاق الأدنى، لكنها تتوهج أكثر، بأعماق أبعد، عندما يلقى فهم جديد، على الحكاية القديمة..

وهكذا، فإن فصلاً جديداً، في قصة الشعائر والطقوس، قد يشرح لنا ما نتوق لفهمه..

المهمة المستحيلة : إلغاء الشعائر

يبدو أن محاولة إلغاء الشعائر من الحياة الإنسانية، سيكون أمراً أصعب مما تخيله رواد الإلحاد والعلمانية الأوائل، الذين كانوا دعاة لنسف الشعائر بدعوى تتراوح بين: "القلب هو المهم"، و "الأمر كله محض وهم"..

كانوا يراهنون على العقل، في حربهم ضد الشعائر، وضد الدين، منذ أن أعلنوها صريحة قبل قرنين أو ثلاثة، فيما تصوروا أنه سيكون "عصر العقل"..

مرت الشعائر (على الأقل في شكلها المباشر) بفترة انحسار، لكن المحصلة النهائية للأمر أنها زادت، وامتدت.. وتنوعت، وبينما كانوا (هم) يفسرون الأمر أنه مرتبط بإحباطات الحياة المعاصرة وشدة وطأتها.. وأن الشعائر تلعب دوراً مهدئاً وملطفاً، يأتي العلم الحديث، لاسيما علم البيولوجيا الحديث، الذي طالما راهنوا على أنه سيلغي هذه الشعائر، ليقول لنا: إن الشعائر لا يمكن أن تلغى، لأنها ببساطة، موجودة في رؤوسنا، نحملها معنا أينما ذهبنا..

بعبارة أخرى: إنها في أدمغتنا.. في الدماغ الإنساني!..

الطقوس عامل مشترك بين المخلوقات

من زاوية أبعد، ورؤية أكثر شمولية، سنرى أن هذه (الطقوس) بمعناها الأكثر سعة، لا تقتصر على النوع الإنساني فحسب، بل تشمل أغلب المخلوقات، إن لم يكن

كلها جميعاً، وما أقصده بالطقوس هنا، لا علاقة له بالمفهوم الديني منها، بل بالمفهوم العام الواسع لها، أي بكونها (حركات، ذات طابع متكرر، وتؤدّى بشكل جماعي)..

معظم مخلوقات الله، تؤدي نوعاً ما من الطقوس، من النحل، إلى الحيتان، مروراً بالقردة ومختلف أنواع الطيور، بعض أنواع الذئاب، والكلاب البرية والشمبانزي، لديها طقوس معقدة جداً، وتؤدى بشكل جماعي، وتتضمن أصواتاً معينة، وتغيراً في ملامح الوجه.. بعض العناكب، والسمندل، وأنواع معينة من الذباب، تقوم بأداء جماعي معقد تصاحبه أصوات معينة، بعض الحيوانات المفترسة تقوم بأداء (طقوس) معينة قبل افتراس الضحية، أو قبل أن تبدأ بالصيد والهجوم..

حتى الحيوانات (المنزلية) لديها طقوس خاصة بها، قد تكون ترحيبية مثل هز الذيل للكلب، أو تقليم الأظافر (على الأثاث) للقطط.. ويلاحظ أن هذه الحيوانات، مهما صارت أليفة، فإنها في موسم (التكاثر) تلبي نداء الطبيعة بالطريقة نفسها التي قامت بها أسلافها قبل قرون، و (المواء الشباطي) الذي تمارسه القطط، قبل تزاوجها، يندرج ضمن الطقوس في تكرار الإيقاعات ووجود الأصوات المصاحبة لها..

وهكذا، فإن كل المخلوقات، لديها هذا الحس (الطقوسي)، وممارستها له، أمر طبيعي جداً، جزءٌ من غريزتها، ومن فطرتها، لا أحد يعلمها إياه.. ولا تكتسبه

من أحد.. إنما هو في داخلها.. وفي شبكتها العصبية تحديداً، التي تسمى، عند بعضها على الأقل، دماغاً!..

وحده الإنسان في أفق أعلى

وحده الإنسان، من دون كل هذه المخلوقات، من السحلية والنملة إلى الحوت.. وحده الإنسان يتميز من كل المخلوقات، بأنه ينقل شعائره إلى أفق آخر.. إنه يمارس (حركات إيقاعية متكررة ونمطية) كما تفعل هذه المخلوقات، لكن، شيء آخر يمسها، و (يمسه).. فيجعل من هذه الحركات النمطية المتكررة شيئاً آخرَ، ويجعله أيضاً شيئاً آخرَ..

شيء ما، يدخل تلك الحركات، فيجعلها، أحياناً، على الأقل، تبعث الضوء..

وتجعل منه، مخلوقاً ضوئياً..

أحياناً، على الأقل!..

"ما فوق الطبيعة"!

ما يميز هذه الشعائر الإنسانية، عن طقوس الحيوانات والمخلوقات الأخرى ..هو الإيمان بشيء ما، شيء ما فوق الحواس والغرائز، شيء ما فوق المحسوس المادي والمباشر، فوق هذا الواقع بأبعاده الثلاثة الجاثمة على الصدور..

الإيمان، بشيء ما، فوق هذا الواقع، (فوق الطبيعة).. ينفخ في هذه الحركات الحياة، ويحولها إلى شعائر..

شعائر تملك (الصلة) بما هو فوق ذلك الواقع.. بما وراء تلك الطبيعة..

سنسميه نحن (الغيب) طبعاً.. وقد يسميه آخرون أشياء أخرى، لا مشكلة كبيرة في ذلك..

* * *

لكن، السؤال هنا، في الخطوة التي سبقت نفخ ذلك الإيمان بالغيب في الحركات، لتصير شعائر وتصير صلة بما هو فوق..

السؤال هو: كيف استطاع الإنسان، أصلاً، أن يتفرد بهذا؟.. لا أقصد هنا، التفرد بالإيمان به، عز وجل، بل بالإيمان بشكل عام، سواء كان الإيمان بحجر، أو بالقمر، أو بالبرق.. أو بروح شريرة تسكن كهفاً في الغابة المجاورة..

ما الذي امتلكه الإنسان، وميزه من بقية المخلوقات، على قمة سلم التمايز.. ما الذي جعل الإنسان قادراً على الإيمان بالغيب، أو بشيء مما فوق هذا الواقع المادي...؟

آدم ودماغه الأعلى!

يمتلك الإنسان دماغاً هو الأكثر تعقيداً بين كل الأعضاء الحية، وكذلك الأجهزة غير الحية أيضاً.. بل إنه الأعقد - بلا أي منازع - من أي شيء نعرف بوجوده في عالمنا.

يتألف الدماغ من حوالي ١٠٠ مليار خلية عصبية، كل واحدة منها ترتبط بـ ١٠ آلاف خلية عصبية أخرى، ولكل

خلية منها كدريليون، أي مليون مليار، (أي واحد وأمامها خمسة عشر صفراً)، نقطة اشتباك عصبية..

وتفوق الدماغ البشري ليس مسألة إحصائية نباهي بها وهي بقية مخلوقات الله، فهذا التفوق الإحصائي استوجب تفوقاً وظيفياً: هناك وظائف عليا، صار بإمكان الدماغ البشري أن يؤديها، بينما بقية المخلوقات، ذات الأدمغة الأقل شأناً وتعقيداً.. لا تستطيع أن تفكر بأدائها، لأنها لا تستطيع أن تفكر أصلاً!..

بعبارة أخرى، يمتلك الدماغ البشري في تركيبه الداخلي مشتركات حتى مع الزواحف.. ولا يزال هذا المشترك قابعاً في رأس كل منا، ولا يزال باسمه العلمي، يحمل ذلك المشترك مع الزواحف reptilian ، إنه الطبقة الأدنى من طبقات الدماغ (brain stem) جذع الدماغ، وهي الطبقة المسؤولة عن الأيض، التنفس، والهضم، أما الطبقة التي تليها فهي تسمى الدماغ المتوسط midbrain ، فهي مسؤولة عن العواطف بالدرجة الأولى، أما الطبقة الثالثة وجزؤها الأهم الذي هو neocortex القشرة الحديثة - فإنها تختص باللبائن من المخلوقات، وهي الأكبر عند الإنسان تحديداً، حيث تشكل حوالي ٧٦٪ من دماغ الإنسان.. وهي التي تمنحه - تحديداً - ما يمتلكه من ملكات ينفرد بها عن بقية المخلوقات..

مثل التفكير.. المنطق.. والقدرة على (التجريد)..

ومن بين كل هذه، فإن الأخيرة بالذات هي التي تخص موضوعنا : الشعائر..

القدرة على إنتاج أفكار (مجردة)

القدرة على التجريد، أو على الفكر التجريدي، هي صفة حصرية بالإنسان، لا يوجد أي مخلوق آخر على وجه الأرض، مهما درب وأتقن تدريبه، له هذه القدرة.. التفكير التجريدي..

والتفكير التجريدي، بالتعريف، يعتمد على القدرة على تجريد أمرٍ ما، من تفاصيله الكثيرة التي قد لا تكون مهمة رغم وجودها المادي المباشر، للوصول إلى لب هذا الأمر، أو صفته الأساسية الجوهرية، التي ربما لا تمتلك وجوداً مادياً مباشراً..

إنه بعبارة أخرى، القدرة على الوصول إلى، أو التفاعل مع، معان معينة ليس لها وجود داخل النطاق المادي؛ بل تقع خارج أسوار هذا النطاق..

فالفيضان مثلاً، أو البركان، أو العاصفة الشديدة، ستنتج أموراً ذات طابع سلبي، كل المخلوقات التي ستتعرض لهذه الظاهرة ستتأثر حياتها بسلبياتها، لكن الإنسان وحده، سيستطيع أن يخترق هذه الظاهرة، إلى ما وراءها، يتجاوز تفاصيلها، "يجردها من تفاصيلها" ليسميها: شراً، أو يسمي غيرها: "خيراً"..

كل المخلوقات، بما فيها الحيوانات، يمكن أن تشعر بالسعادة، أو بالحزن، أو بالرضا، أو بالغضب.. لكن الإنسان وحده يمكنه أن يسمي ذلك، أن يطلق الاسم على

مجرد شعور، أي أن يكون "المسمى" لا يتعلق بحيز مادي أو مكاني، بل في بعد آخر غير منظور..

الإنسان وحده، بقابليته على التجريد، يمكن له أن يتصور هذا البعد غير المنظور، أن يؤمن بوجود بعد كهذا، حتى يؤمن به بعدها.. أو يرفضه.. ويمكن له أن يتعامل مع "رموز" ليس لها وجود مادي لكنها محملة بمعانٍ خارج هذا الوجود، واستعمال هذا الرمز يحمله فوراً إلى هذا البعد الآخر..

هذا التجريد، هو ما ميز الإنسان عن كل المخلوقات الأخرى، وكان دماغه المميز، بالذات دماغه الأعلى "القشرة الحديثة" هو الآلة التي جعلته قادراً على ذلك.. قادراً على التجريد.. وعلى ابتكار الرموز اللغوية.. التي تحمله وتصله بالمعاني المجردة: أي الأسماء..

الإنسان الأول والأسماء: القدرة على التجريد

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[البقرة: ٢/٣١-٣٣].

سيكون ظلماً كبيراً، بحق القرآن الكريم، وبحق أبينا آدم، وبحق فهمنا للقرآن، وبحق أنفسنا، وبحق الأدمغة التي نحملها في رؤوسنا بالتحديد، أن نشيح بوجوهنا عن هذه

الآية، عندما نأتي على فهم ما تميز به الإنسان من قابلية للفهم التجريدي..

سيكون ظلماً أن نفهم أن الأسماء هي محض أسماء، لقَّنها الله - عز وجل - لآدم وانتهى الأمر..

إنما الأمر أكبر بكثير.. إنما هي قابليته "الأصيلة" التي أودعها الله فيه على اقتحام حجب اللامرئي؛ المعاني التي لا تسكن الواقع الفيزيائي بل تستقر في بعد آخر..

(الأسماء) هنا، هي قابلية الإنسان، على الإمساك بالمعاني، ووضعها في قوالب اللغة، وجعل هذه القوالب رموزاً تعني أكثر بكثير من الأصوات التي تعنيها، معانٍ عميقة، لكنها (مجردة)، خارج نطاق الزمان والمكان الذي سقطت في أسره الكائنات الأدنى..

الأسماء هنا، هي كناية عن قدرة الإنسان على تعامله مع الرموز، مع المجرد، مع أبعاد ما وراء الطبيعة، مع البنية الفوقية..

وهذه كلها، بمجموعها، هي ما ميزت الإنسان، وجعلته على قمة السلم..

* * *

ليست هذه القابلية، خيراً محضاً بالضرورة، إنما هي آلة، ومثل أي آلة، يمكن استخدامها باتجاهين..

إنها آلة متطورة حتماً، وأكثر تطوراً من أي آلة أخرى في رأس أي مخلوق آخر.. أو أي جهاز حاسوب حديث..

ولكن هذا يجب ألا يبهرنا، ويجعلنا نتصور أن أي نتيجة تصل إليها هذه الآلة هي صحيحة ومطابقة للصحة..

إنها، مثل أي حاسوب حديث ومتطور، نتائجها تعتمد على "المدخلات" - - input فإن كانت المدخلات متحيزة، أو انتقائية، فإن الناتج النهائي لأعظم آلة على الإطلاق لن تكون عظيمة أبداً..

لذلك تأتي الآيات الكريمة لمجادلة هذه القابلية الإنسانية الفذة.. عندما وضعت في المسار الخطأ..

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧/٧١].

الانتقال بالطقوس إلى أفق الشعائر

ما علاقة هذا كله بالموضوع الأصلي: الشعائر؟..

علاقته، أن الإنسان، وحده، بقابليته التي جعلته على قمة سلم الخليقة، يمكنه أن يحول تلك "الغريزة الطقوسية"؛ أي الميل إلى أداء حركات بإيقاع متكرر وجماعي يشترك فيه مع الزواحف والسحالي والقردة والحيتان.. - وحده، ينفرد، أنه يمكنه أن يحول هذه الطقوس والإيقاعات إلى شعائر، وحده يمكنه أن يخرج هذه الطقوس عن إطار الأبعاد الفيزيائية، ليحلق بها نحو عالم المجرد، نحو غيب لا يمكن التعامل معه بالحواس المادية، بل لا يمكن تحسسه إلا بذلك الدماغ الأعلى.. الذي ينفرد به الإنسان عن المخلوقات.. بل حتى عن الملائكة..

وحده الإنسان، يمكنه أن يضخ الرمز والمعنى، في تلك الإيقاعات، فإذا بها تضج حيوية وتفاعلاً، وإذا بالرمز هو بمنزلة الروح لها..

وحده الإنسان، من بين كل المخلوقات، يمكنه أن يحوّل تلك الحركات، من مجرد حركات فيزيائية، إلى (صلة)، تربطها ببعد آخر، غير منظور، لا تستطيع الزواحف حتى أن تتصور وجوده..

لأنها لا تستطيع أن تتصورا..

* * *

لنرتب الآن الموضوع من جديد..

أولاً - تشترك معظم المخلوقات غريزياً في أداء حركات إيقاعية نمطية متكررة، تؤدَّى غالباً بشكل جماعي، وتوظف أيضاً لأداء دور اجتماعي بطريقة أو بأخرى..

ثانياً - يشترك الإنسان معها في ذلك أيضاً، حيث لا يخلو مجتمع إنساني معروف - بدائي أو متطور أو (بين - بين) من أداء الشعائر أو الطقوس، وبعض القبائل البدائية في أسترالية تؤدي طقوساً شديدة التعقيد، احتفالاً ببلوغ ذكورها، لكن هذه الطقوس تكاد تكون مطابقة لما تفعله بعض أنواع الطيور..

ثالثاً - هذا (المشترك) بين الإنسان وسواه، يتحكم به جهاز عصبي ما، يختلف باختلاف الكائن ورتبته في سلم التمايز، وهو الدماغ الأدنى، "جذع الدماغ"، بالنسبة إلى

الإنسان وفصائل أخرى متنوعة.. وهذه الطبقة يبدو أنها السبب في الميل لخلق الطقوس والشعائر..

وهذا يعني أن هذه المخلوقات، ومن ضمنها الإنسان، مبرمجة على صنع (الطقوس)، إنها تحوي في داخلها، برنامجاً عصبياً يجعلها تصنع ذلك..

رابعاً - الإنسان، ينفرد وحده، بأنه يستطيع أن ينقل هذه الإيقاعات الحركية (التي يبرمج على تكوينها) باتجاه أعلى، أكثر تجريداً، نحو أفق أكثر رقياً وتعقيداً.. إنه يتعامل من خلالها مع معانٍ مجردة، بشكل يجعل هذه الحركات أكثر من مجرد حركات، بل كل حركة تصير "رمزاً" يرتبط بالمعنى الفوق ما وراء الطبيعي..

خامساً - تفرد الإنسان بهذه القابلية، يعود أصلاً إلى تفرد دماغه وامتلاكه الطبقة العليا المتفوقة، التي تجعله قادراً على أداء ملكات التفكير والمنطق، والفكر التجريدي..

إنه تفرده الذي جعله قادراً على أن يتعامل مع (تسميات) - ويطلق عليها (الأسماء) - كناية عن قدرته على وضع المعاني العميقة داخل قوالب لغوية.. في عملية لعلها الأعقد منذ بدء الخليقة..

* * *

البرمجة على الشعائر : الدماغ الخاشع

وهكذا، وكما ترون، فإننا مبرمجون على أداء (شعائر) ما بطريقة ما.. نحن والزواحف والحيتان والكلاب البرية..

بفارق أننا وحدنا قادرون على فكّ شيفرة البرنامج نفسه بطريقة مختلفة، بطريقة تنقله، وتنقلنا، إلى أفق أعلى..

* * *

لعل الأمر كله مخيب للآمال.. مخيب لآمال فريق على الأقل.. فقد تعودنا، عندما نتحدث عن الصلاة، أن نتحدث عن القلب الخاشع، لا عن الدماغ، ولا عن طبقات الدماغ المشتركة مع السحالي والكلاب!..

هناك المزيد من الخيبة إذن!..

* * *

بين طبقتي الدماغ اللتين تحدثنا عنهما؛ السفلى المشتركة مع معظم المخلوقات والتي تحوي البرنامج الأساسي لأداء الشعائر، والعليا التي ينفرد بها الإنسان والتي تمكنه من فك شفرة البرنامج نحو أفق أعلى، هناك طبقة وسطى.. إنها الطبقة القلب، midbrain، وهي مركز العواطف في الدماغ.. بعبارة أخرى: عندما تمر بنا تلك القشعريرة في لحظات الصلاة، عندما نستحيل ريشاً ملوناً في خضم إعصار من الخشوع..، عندما نشعر أن الكون كله قد انكمش حتى صرنا مركزه، أو أننا تمددنا لنكون

الكون كله، كل هذا، وربما أكثر، مركزه تلك الطبقة الوسطى من الدماغ..

القلب منه!..

* * *

يا للخيبة.. سيقولون..!

* * *

لا يجب أن تخيب آمالنا إذن.. فكوننا مبرمجين، منذ أن بدأ الخلق، على أداء شعائر ما، وأن الدماغ، كله، **بطبقاته الثلاث، مشترك في عملية (الصلاة) هو أمر يجب أن يجعل أفواهنا تسقط من الإعجاب والانبهار..** لا أن تظهر علامات الخيبة والاشمئزاز على وجوهنا..

"لكن الدماغ؟!.." سيقولون..

نعم. ربما هي صورة لم نألفها.. في الحديث عن موضوع كهذا..

لكن ربما أيضاً هي الصورة الأفضل.. ربما هي الصورة الأكثر وضوحاً..

ربما هي الصورة التي تستطيع أن تكون مرآة لنا.. ولما نريد أن نكون..

أو بالأحرى: لما يجب أن نكون..

الفصل الرابع

مخلوق شعائري، رغماً عن أنفه....

إذن نحن مخلوقات (شعائرية) ليس بقلوبها فحسب بل بفطرتها.. بأدمغتها.. رضيت أم لم ترض.. شاءت أم أبت..

لكن.. كيف نفسر إذن، ترك الناس لأداء الشعائر؟.. كيف نفسر أن الحياة الحديثة، على الأقل عند قطاع كبير من الناس تبدو أحيانا خاليةً من الشعائر؟.. كيف ينسجم كوننا مبرمجين على أداء شعائر ما مع حقيقة أن ملايين الناس، في عصرنا الحالي، هم إما ملحدون علنيون، يقولون عن أنفسهم: إنهم ملاحدة دون أن يرمش لهم جفن، أو أنهم يعتقدون بوجود الإله، لكن اعتقادهم هذا "مع وقف التنفيذ" أي إنه لا يتحول إلى أي عمل شعائري موجه نحو هذا الإله..؟؟

كيف نفسر ما نقول: إننا محكومون بذلك البرنامج القديم المغروس فينا، مع نمط الحياة العلمانية الحديثة، التي غزت العالم كله، والتي غزتنا أيضاً، والتي نرى كيف أنها تكاد تكون خالية من الشعائر؟..

ربما سيقولون: إن تلك الشعائر وأداءها، كان مرحلة ما، في درب التطور المزعوم، وإن الإنسان احتاج إلى الشعائر في مرحلةٍ ما، كما احتاجت إليها بقية المخلوقات، وإنه حول حركاته وإيقاعاته إلى شعائر دينية لكي تساعده على مواجهة إحباطات الحياة، ثم إنه، عندما استمر في التطور، ترك هذه الشعائر، كما ترك المعتقد الذي يقع خلف الشعائر.. بالضبط كما ترك السكن في الكهوف والصيد في الغابات.

لا يوجد مجتمع إنساني، مهما كان علمانياً ومتطوراً، استطاع أن يطلِّق الشعائر، كما يُتَوهَّم.. أو سيستطيع أن يفعل ذلك لاحقاً، أو في وقت قادم.

لا يمكن، ببساطة، أن تتوافق الكلمتان (مجتمع) و (لا شعائر).. لا يمكن أن يحدث ذلك، مهما ادعى أي شخص غير ذلك، ممن يهاجمون الشعائر، وما يقولون إنه جمودها.. من أجل الهجوم على الدين برمته..

لا يوجد مجتمع إنساني، بلا شعائر.. لأن هذا مناقض لحقيقة ثابتة من حقائق الإنسان: وهي أنه مخلوق شعائري..!

وجه آخر من الطقوس

لا أقصد هنا الإشارة إلى عدد المترددين على دور العبادة في الغرب، وزيادتهم عموماً مقارنة بالعقود الماضية، خاصة في أمريكة، فهذا موضوع آخر، وربما لا يرتبط - بموضوع الشعائر؛ بل بموضوع الدين والحاجة

الإنسانية إليه بشكل أعم وأكبر.. خاصة أن أمريكة ذاتها، على الرغم من وجود كثير من النواحي العلمانية في الحياة فيها، إلا أن أصل نشأتها مختلطاً برؤية دينية معينة، جعل من بعض المظاهر الدينية راسخة فيها، على الرغم من كل مظاهر الانحلال الأخرى..

لا أتحدث إذن عن الشعائر في مجتمع مزدوج، مثل المجتمع الأمريكي.. بل حتى عن الشعائر، في مجتمع علماني صرف، ملحد تماماً، قام على أسس نسفت الدين من أساسه.. عن تجربة بناء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي السابق. حيث حورب الدين ، وأغلقت دور العبادة، وشرد رجال الدين، وأعدم المئات منهم، تحولت بعض الكنائس إلى اصطبلات ومستودعات ومؤسسات حزبية، وتم حذف كل ما يتعلق بالدين من الدولة وضخ العكس منه في رؤوس التلاميذ...، لكن الشعائر ما لبثت أن دخلت من باب آخر ، ذلك أن الإنسان مخلوق شعائري بطبعه، إنه مخترع شعائر، وهو مخترع ممتاز، ولذلك فإن الحاجة الشعائرية تلك، التي أزيح منها الدين، ما لبثت أن عوضت نفسها بتمازجها مع الإيديولوجية الشيوعية.. وصارت هناك، بدلاً من عيد الفصح وعيد الميلاد التقليديين، أعياد جديدة تعكس العقيدة البلشفية، وتؤدى خلالها طقوس جماعية تحتفل بالذكرى، وتصاحبها أناشيد بكلمات معينة تؤدى بحماسة.. وسنة بعد أخرى، تحولت هذه الحركات الإيقاعية، مع الأغاني المصاحبة لها، إلى نمط يتكرر، ويربى على أدائه الأجيال، ويعتبر جزءاً من

اللحمة الاجتماعية، ومن الهوية الجماعية للفرد داخل المجتمع..

ومع الوقت، زادت هذه الطقوس تعقيداً، وتماهت تماماً في بعض الأحيان لتصير بمثابة عبادة للفرد؛ للزعيم الذي يمثل قمة تلك الإيديولوجية ويكون المجسد لها.. والمزار الذي أقيم لقبري ستالين ولينين، والطقوس التي تؤدى عندهما في مناسبات معينة، تذكر جداً بطقوس مشابهة لقبور أشخاص لا يشبهونهم في شيء..!

والذي حصل مع الشيوعية، في نسخها المتعددة: السوفييتية والصينية، حصل قبلها مع النازية ومع الفاشية: حركات إيقاعية جماعية، مصاحبة بنشيد تعبر كلماته عن العقيدة السائدة.. ومن ثم يتطور الأمر ليصير عبادة للفرد، حيث تؤدى لفرد ما يمثل قمة الهرم العقدي - حياً كان أم ميتاً - طقوس خاصة له، في عيد ميلاده، أو عيد انتصاره (أو عيد موته!..)

* * *

حسناً، كان ذلك، العصر الغبي للإيديولوجيات الشمولية الغبية. وقد انتهينا من ذلك.. وانتهى التاريخ لمصلحة الليبرالية الديمقراطية الغربية، أو هكذا يزعمون..

كانت تلك الإيديولوجيات تنتج شعائرَ كهذه، أما الآن، فقد تخلصنا من ذلك، وتحررنا من قيود كل تلك الإيديولوجيات وإفرازاتها الشعائرية.. نحن الآن في عصر الحرية! (لا تنسوا أن تسبحوا لمجدها القادم على جثث أطفالنا)..

نمط الحياة الحديثة، شعائر بلا حصر

بما أن الإنسان مخلوق شعائري.. وهو مخترع شعائر ممتاز، فإن "نمط الحياة الحديثة" (الأمريكية - الغربية) يعبر عن نفسه حتماً عبر شعائر أيضاً، لكنها تتسلل دون أن نشعر أنها شعائر.. ليس فيها النمط القسري الذي كان موجوداً في الإيديولوجيات الشمولية.. بل إنها تؤدّى باستمالة وسائل الإعلام وبغريزة القطيع، الذي يجعل من عدم أدائك لهذه الطقوس تخلفاً عن ركب القطيع السائر إلى الأمام.. لا إقسار مباشر، ولكن هناك أساليب أشد قسراً، وأقل مباشرة..

ماذا لدينا..؟

* * *

إنها أمور صغيرة، ربما! مجرد تفاصيل، ربما أيضاً! لكنَّ حقائقَ كبرى ربما تسكن فيها، تسكن في تلك التفاصيل الصغيرة التي تتسلل ببطء ودون أن نلقي لها بالاً كبيراً..

عيد الميلاد مثلاً، كان البشر يولدون منذ أن كان هناك بشر .. لكنهم لم يكونوا يحتفلون بميلادهم كما نفعل اليوم.. بالضبط كما استوردنا ذلك من هناك ..

"ماذا في الأمر؟ إنه ليس "عيداً" فلا تعظموا الأمر، إنه ذكرى الولادة فحسب.. لا تعقدوا كل شيء.. دعونا نقض بعض الوقت الممتع.."

لا بأس.. لكن تذكروا أيضاً، في أثناء قضاء الوقت الممتع، أن تحلقكم حول المائدة، وإنشادكم للنشيد ذاك، ووجود الكعكة والشموع على المائدة التي تتحلقون حولها؛ كل ذلك يقع، حتماً، حسب ذلك التصنيف نمط متكرر من الحركات، مصاحب بنشيد..

وهو يعبر، حتماً، عن واحدة من أهم القيم التي ارتكزت إليها الحضارة الغربية: الفردية ..

إنها شعيرة تعبر عن ذلك.. تعبر عن نمط الحياة الذي مركزه الفرد.. ويعزز ذلك بالهدايا المغلفة، والتي تعبر أيضاً، ضمناً، عن قيمة أخرى من قيم تلك الحضارة: الاستهلاك..

الأمر إذن أكبر بكثير من مجرد قضاء الوقت الممتع..

* * *

حفلات التخرج في المدارس الثانوية، والتي تتسرب إلينا بالتدريج عبر وسائل الإعلام، تحوي أيضاً ذلك النمط الإيقاعي المتكرر، وتشبه، في نواحٍ كثيرة، طقوس البلوغ التي تؤديها القبائل البدائية في مجاهل إفريقية.. في بعض الولايات في أمريكة، يقومون باحتفال للشبان والشابات الذين حصلوا على رخصة السياقة في تلك السنة، ربما لأنهم لم يتخرجوا في الثانوية، ولا بد من تقديم شعائر من نوع ما "لبلوغهم". حفلات التخرج في الجامعات، لها أيضاً طقوسٌ ومراسيم، وملابس معينة، استوردناها كما استوردنا كل شيء، جاهلين أن جذورها ضاربة في عمق

الحضارة الغربية، بل في عصورها الوسطى المظلمة، حيث إن هذا الرداء والقبعة، كان الزي المميز لطلاب واحدة من الجامعات الدينية في شبه الجزيرة البريطانية، وكانوا يرتدون هذا الزي طوال الوقت، ليتميزوا عن العوام والجهال..

مواسم الدوري الرياضي أيضاً فرصة لأداء بعض الشعائر.. لا أقصد الرياضة بحد ذاتها، لكن مظاهر التشجيع تتخذ أحياناً شكلاً طقوسياً شديد الوضوح، خاصة مع اللعبة الأكثر رواجاً في أمريكة، كرة السلة، حيث تقوم الفتيات بأداء حركات تشجيعية إيقاعية متقنة وصعبة، في نسخة طقوسية معاصرة من أداء فتيات القبيلة البدائية لطقوس معينة احتفالاً بشبان القبيلة الأقوياء وهم يبرزون مهاراتهم..

طقوس الزفاف - الديني أو المدني أو المزيج منهما - تحمل أيضاً نمطاً متكرراً من الحركات، وهي تتسرب إلى طريقتنا في الزواج نحن أيضاً كما كل شيء..

طقوس (عيد الشكر) (والتي أستغرب لم تأخر تسللها إلينا، عسى أن يكون المانع خيراً) تعكس تاريخ إبادة الهنود الحمر والاحتفال بهذه الإبادة، حيث إن الديك الرومي التقليدي هو تذكار لضيافة السكان الأصليين لمجموعة ضالة من البيض في ليلة شتوية ممطرة، تم لاحقاً الغدر بسكان القرية وإبادتهم.. والاحتفال بهذا الانتصار دون نسيان الديك الرومي..

وعدا هذا وذاك، فإن طقوس "حمى ليلة السبت" التي تجري بشكل جماعي في المقاصف والمراقص وتحت الأضواء الراقصة وعلى إيقاع موسيقي صاخب، هي طقوس تشبه في خطوطها العامة، طقوس الحيوانات في مواسم جماعها، بفارقين: الأول أنها أكثر ابتذالاً، والثاني أن الحيوانات تناور أكثر قبل أن تصل إلى ما تريد..

* * *

حتى "عبادة الفرد " وجدت لها نوعاً من الطقوس في الغرب ، تختلف عن طقوس عبادة الزعماء في عالم الاستبداد الشيوعي المندثر، لكنها "عبادة فرد " بكل الأحوال.. وتتمظهر في ذلك الهوس الذي يصيب الجماهير بأفراد معينين تسوقهم شركات الإنتاج على أنهم "المثل" و القدوة".. أنهم "النجوم" في شتى مجالات الفن والغناء والرياضة.. والواحد منهم يسمى أحياناً "معبود الجماهير"..

* * *

وهناك نوع آخر من الطقوس، لا تختص بالغرب، ولا بنمط الحياة الغربية، لكنها موجودة فيه، بالذات في أمريكة، ويؤكد وجودها وتكريسها هناك، كما في كل مكان في العالم، تلك النزعة الشعائرية عند الإنسان، وصفته بأنه مخلوق شعائري: هذه الطقوس هي تلك التي تتعلق بمجرد قطعة قماش؛ قطعة قماش لا أكثر ولا أقل، لكن الإنسان، بقدرته على الترميز، وتحميل المعاني، يحول

قطعة القماش هذه إلى رمز للوطن، ويقيم لها الشعائر والطقوس، ويتمسك بها ويضعها في واجهة داره، أو في صدره عندما يمر وطنه بأزمة.. وما هي إلا قطعة قماش لو أننا ألغينا المعاني الفوقية..

* * *

عدا هذه الطقوس الدورية، التي تعج بها الحياة الحديثة، هناك طقوس شبه يومية، صار الإنسان الحديث "بنسخته الأمريكية" خصوصاً يمارسها، وتمارسها شعوب خلفه، حذو القذة بالقذة، تعدّ هذه الطقوس محض عادات، وقد تكون عادات غذائية أو صحية أو رياضية، أو "تسوقية"، لكنها، بالطريقة النمطية التي تمارس بها.. ولأنها تكاد تصير، بالنسبة لمؤديها، هدفاً للحياة، ومحوراً من أهم محاورها، بل إنها تصير: المعنى الكامن للحياة بالنسبة إلى مؤدّيها.. ولذلك، فإنها أكثر من مجرد (عادات).. إنها شعائر بمعنى من المعاني..

* * *

شعائر الحياة الحديثة، ليست محل بحثنا هنا، وما وردت إلا من باب التدليل على أن الشعائر ستظل موجودة، حتى في المجتمعات، التي نتصور أنها أنجزت طلاقها من الدين وشكلياته.. تخرج الشعائر من الباب، ولكنها تتسلل من النوافذ، من تحت الأبواب.. من بين المسامات.. ربما بأسماء أخرى، ربما دون أن تصرح عن نفسها أنها شعائر.. لكنها ستسد تلك الحاجة الموجودة في دماغ النوع

الإنساني.. وهي الحاجة الموجودة أيضاً في المخلوقات (الأدنى)..

شعائر الحاجات البيولوجية (الدنيا)

وهذا ما يجرنا جراً إلى موضوع آخر.. له صلة بكل ما نتحدث عنه..

فهذه الشعائر الحديثة، مهما أطلقنا عليها من تسميات، لو حللناها، لو وضعناها تحت المجهر الأركيولوجي والسوسيولوجي والسايكولوجي، لوجدنا أنها تسد فعلاً حاجة الدماغ الأدنى، إلى الأداء الإيقاعي النمطي، تؤدي بذلك وظائفَ لصالح اللحمة الاجتماعية.. كما تفعل الزواحف والكلاب البرية والطواويس؛ أي إنها تلبي وتسد نداء الجزء الأدنى من أدمغتها المشترك مع كل المخلوقات الأدنى..

لكن لا شيء هناك في هذه الشعائر الحديثة، يجعلها تستغل تلك الطبقة العليا من أدمغتها، التي ميزت الفصيلة الإنسانية برمتها..

لا شيء هنا، في هذه الشعائر، يجعلها تتصل بذلك الشيء الذي لا يسكن الأبعاد الفيزيائية، الذي لا يحتاج إلى حيز مكاني أو فيزيائي ليتموضع فيه..

إنها محض شعائر تخص "الآن وهنا" بلا أبعاد فوق ذلك، بلا أبعاد تسبر أغوار الغيب، بلا شيء يصلها بالغيب..

إنها شعائر المادة، والأكل، والجنس، والصحة..

لكن لا شيء، ولو بالرمز، يصلها بذلك البعد الآخر، الذي لن تفهمه الزواحف ولا القطط..

والذي وحده الإنسان، بملكة التجريد عنده، يستطيع أن يحوزه.. لا شيء، يرتبط بـ (آدم)..

الإنسان يتنازل عن استحقاقاته

وهذا يعني، بطريقة أو بأخرى، ومن زاوية شمولية، أن هذه "الشعائر الحديثة" تمثل تنازلاً من قبل الإنسان، عن استحقاقاته التي جعلته على قمة سلم المخلوقات.. باتجاه استحقاق المخلوقات الأدنى ومتطلباتها..

إنه تنازل من هذا الإنسان، عن تلك الصلة التي لن يفهمها إلا هو.. وقبول منه، بما تكتفي به الطحالب والدواب..

إنه بمعنى آخر، "ارتداد"..

ارتداد عن النوع الإنساني كله..

باتجاه الزواحف والسلاحف..

* * *

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٩٥/٤]..

نعم.. ولقد رأينا ذلك - وبرهان ذلك لا يزال قائماً في جمجمته.. في ذلك الجهاز الأعقد والأكثر كفاءة من بين كل الأجهزة والآلات في الكون..

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٩٥/٥]..

ولقد رأينا ذلك أيضاً، آسفين، رأيناه يتنازل عن قمته العالية. يهبط إلى القعر.. وبدلاً من أن يحلق في عوالم اللازمان واللامكان، رأيناه يهبط درجة، تلو أخرى.. ليحبس نفسه، في قفص ضيق من أبعاد ثلاثة..

عبر شعائر لا تصله بالله، بل محض شعائر لا تتصل إلا بالواقع الأدنى..

إنها الردة!

الآن أفهم الردة حقاً!..

لا أريد أن أدخل حقل الألغام الفقهي، فهو بالتأكيد ليس مناسباً هنا..

لكني الآن أفهم "الردة" بمعنى أوسع وأكثر تجريداً: إنها ارتداد عن القمة العالية التي وصلها الإنسان بصفته الأرقى بين المخلوقات. إنها ارتداد عما جعل آدم يستحق سجود الملائكة، إنها ارتداد عن تلك القمة العالية التي حزناها .. وهبوط إلى القعر..

الكسل؟ الجحود؟.. لا أعرف. لا أعرف كيف أصف الأمر هنا، فهذه تفاصيل.

لكن من حيث أرى الأمر، من بعيد، أراه بوضوح: ترك الصلاة؛ ترك ذلك البعد الآخر في الفهم - في الشمائر - هو هبوط من مرتبة الإنسان.. باتجاه درجة الزواحف..

ولو دققنا، لوجدنا كثيرين، ممن لا يصلون، يشبهون الزواحف.. على الأقل، لو رأينا من داخلهم..

الفصل الخامس

شعائر الدين الخاتم : شعائر خاتمة؟

نؤمن طبعاً أن ديننا هو الدين الخاتم، وأنه الدين الأفضل والأكمل، وأن شعائره، تحتوي على ما هو أكثر من شعائر الأديان الأخرى، وأن ديننا، بما أنه الأفضل، لا بد أن يحتوي، في شعائره، على أكثرمما تحويه الأديان الأخرى من البعد الروحي.. على أهمية هذا البعد ، التي تميزنا بوصفنا نوعاً إنسانياً.. لكن، شعائر الدين "الأفضل"، لا بد إذن أن تكون مختلفة ومتميزة عن شعائر غيره من الأديان..

لا يقلل هذا من أهمية الدور الاجتماعي، وإبراز الهوية، التي تقوم بها كل الشعائر بعمومها، سواء مورست من قبل مؤمني الأديان الأخرى، أو كانت مجرد طقوس علمانية..

لكن الدين الخاتم، لا بد أن يكون لشعائره.. وظيفة أخرى..

وظيفة خاتمة..

* * *

بعبارة أخرى، إذا كانت الصلاة، كشعيرة بشكل عام، **تحافظ على مكانتنا بوصفنا نوعاً إنسانياً**.. فإن الصلاة التي هي ركن من أركان الدين الخاتم، لا بد أن تتجاوز المكانة.. إلى المساعدة في تحقيق الهدف من وجود النوع الإنساني على قمته العالية..

* * *

بينما نتثاءب..

الهدف؟.. هل هناك هدف أصلاً من وجودنا على هذه الأرض؟.. حتى تساعدنا الصلاة عليه!؟

* * *

سيقول آخرون، بينما يحكُّون رؤوسهم متفكّرين: ألم تكن الصلاة هي الهدف الذي خلقنا من أجله؟ هكذا فهمنا الأمر.

لا، لقد فهمناه للأسف خطأ..

فـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] تتحدث عن العبادة، وهي معنى أوسع وأشمل.. وقد تشمل الحياة بأسرها..

أما الصلاة، فهي حتماً، أخص، وأدق.. ومتضمنة في العبادة، لكنها لا تساويها..

* * *

ماذا كان الهدف إذن؟ غير الصلاة؟!..

لماذا نحن على هذا الكوكب البائس؟!..

* * *

إذا كان هناك أحد، قد نسي ذلك (أو إذا كان أحد قد تذكره أصلاً!) فقد تصادف أنك موجود هنا: من أجل أنك الخليفة على الأرض..

وهذه الصلاة، المفترض أنها تقوم بتحسين أدائنا لما وجدنا من أجله..

لكننا طبعاً نفترض في الصلاة أي شيء، وكل شيء، باستثناء هذا الأمر: الخلافة.

سيقول بعض الناس: ما الذي ذكرك بهذا أصلاً؟!..

* * *

نهر الخير : المنبع من الداخل

سورة قصيرة جداً، عشر كلمات فقط، في ثلاث آيات فقط، هي حتماً أقصر سورة في القرآن الكريم..

إنها سورة الكوثر طبعاً، التي يحفظها أصغر الصغار، فيها فعل الأمر الوحيد، لذلك الحد الفاصل بين الكفر والإيمان..

الصلاة..[1]

(١) لم يرد فعل الأمر بالصلاة بهذا الشكل المباشر إلا مرة واحدة (صل) في سورة الكوثر - أما سائر الآيات فكانت تأمر بإقامة الصلاة.

السورة مكية مبكرة، وتحتل الرقم الخامس عشر في ترتيب النزول.. وتليها فوراً سورة التكاثر مباشرة في تلاحم ملفت.

لننظر.. فالتكاثر والكوثر مشتقتان معاً من الفعل (كثر)، ولكن (التكاثر) شيء، و (الكوثر) شيء آخر.. تماماً..

والتكاثر، الذي ورد في معرض الذم، ينتهي، في خاتمة السورة بالمقابر، في إشارة واضحة إلى الهباء الذي تنتهي إليه معظم عناصر فعل المكاثرة..

أولئك المكاثرون، الذين يقضون حياتهم في التكاثر، في مراكمة الأموال والبنين والأشياء من حولهم، ويتصورون أن هذه المراكمة هي المقياس الوحيد للنجاح.. هي المقياس الوحيد للاستمرار.. إنهم يعتقدون أن هذه الأشياء (سواء كانت محض ثروة مادية، أو ممثلة في بنين يحملون أسماء آبائهم) ستضمن لهم الاستمرار.. أو الخلود بطريقة أو بأخرى..

وتقع المواجهة بين التكاثر والكوثر، عندما يعير واحد من المكاثرين، الرسول الكريم، بكونه بلا أولاد ذكور، وهذا حسب مفهوم (التكاثر) - ومجتمعات التكاثر - يعني أنه سيكون أبتر: بلا نسل..

لكن (للكوثر) منطقاً آخر، فالاستمرار فيه لا يقاس بما يتراكم من أموال وأشياء وبنين أو بنات.. والمقياس فيه ليس للكثرة الكمية التي قد تحوي ضمن ما تحوي السم

الزعاف والأمراض والفساد، بل القياس فيه للنوع.. وليس للكم..

ولذلك فإن ذلك الشخص المكاثر، الذي قال ما قال، انتهى كنكرة، انتهى بلا ذكر، حتى لو كان قد أنجب عشرة من الذكور..

أما ذاك الرجل الذي عير بعدم الإنجاب، الذي لم يكن قد راكم ما يتكاثرون به، عليه الصلاة والسلام، الذي لم يخلف ذكوراً يحملون اسمه (!) فإن ذكْره اليوم، بعد قرون طويلة، غطى حرفياً، كل أرجاء المعمورة..

شخص ما، لا نعرف اسمه اليوم، كان قد عيره بأنه مقطوع النسل!.. شخص ما، بدا آنذاك، حسب مقاييس التكاثر، أنه أكثر نجاحاً منه عليه الصلاة والسلام..

لكن للكوثر، مقاييس أخرى..

معيار آخر للكوثر..

بينما التكاثر يعتمد على مراكمة أشياء وزيادتها دون حساب "للقيم" المحتواة فيها..

فإن للكوثر مقياساً آخر يجعله زيادة في الخير فقط.. إنه "الخير الكثير" كما فسّرها ابن عباس وغيره..

بعبارة أخرى: التكاثر، هو الكثرة فقط، مراكمتها كيف كانت، أرقام بيانية تصعد، ولو كان صعودها سيؤدي إلى الهاوية..

أما مع الكوثر، فليس "الصعود" محسوباً إلا إذا كان سيؤدي إلى تحقيق رقي في القيم الإنسانية..

وبعبارة أخرى: التكاثر، وقيم التكاثر، تهتم (كمثال) فقط لزيادة الدخل القومي والاستهلاك ومعدلات الفائدة في البنوك، وتعد ذلك مؤشراً على "التنمية"..

أما مع الكوثر: فالمهم هو الإنسان، علاقته مع نفسه، مع ما حوله من مجتمع، مع الثوابت من قيمه، مع الله كمصدر أعلى ونهائي لهذه القيم..

مع التكاثر: زيادة الدخل الكلي هو هدف بحد ذاته، حتى لو كان توزيع هذا الدخل يزيد من الهوة بين أغنى الأغنياء، وأفقر الفقراء، ويزيد من التوتر الاجتماعي..

مع الكوثر - الزيادة هي زيادة الخير فقط.. هي تكثير الخير..

إنه الفرق بين التنمية؛ كخطوط بيانية تتحدث عن أرقام مجردة..

وبين النماء الإنساني الذي همه الإنسان وقيمه.. أي النهضة بعبارة أخرى.

* * *

ولقد استقرت كلمة الكوثر، في تفسيرات السلف، وفي أذهان المسلمين، على أنها نهر عظيم في الجنة، أعطاه الله عز وجل، وهو أعز من أعطى، لمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي هو أعز من أخذ..

ولا فرق حقيقة بين المعنى اللفظي المباشر للكوثر؛ الخير الكثير، وبين كونه نهراً عظيماً في الجنة.. وقد جمعت السيدة عائشة بين الأمرين في فقهها العقلاني

المميز، فقالت: إن الكوثر نهر في الجنة من الخير العظيم الذي أعطاه الله عز وجل لرسوله الكريم.

إذن نحن هنا، أمام مفردة قرآنية كريمة، لها مقابلان واحد دنيوي، والآخر أخروي.. الدنيوي هو الخير الكثير بجميع معانيه.. والأخروي، هو ذلك النهر العظيم في الجنة..

إذن نحن أمام رمز هائل يجسم معنى الكوثر: النهر العظيم.. والنهر هو دوماً رمز للحياة.. وللخصب.. وللعطاء ..إنه الذي تبني عليه الأمم أعظم مراكزها الحضارية.. كل الحضارات العريقة بنت مواطنها على أحواض الأنهار، وبالنهر أيضاً يمكن للصحراء اليابسة أن تتفجر حياةً، به أيضاً يمكنك أن تولد الطاقة.. أن تنير الظلام..

النهر رمز متجدد للحياة.. واسمه هنا الكوثر.. ويقابل هذا الرمز، مرة أخرى، على الضفة الأخرى من المعاني، رمز آخر، يرمز للتكاثر المادي الفارغ من المعنى الذي يتلهى به بعض البشر.. إنه المقابر ..﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١٠٢/١-٢]..

فمقابل ذلك النهر العظيم الذي يرتبط بمعاني كثرة الخير والنماء الإنساني، هناك "المقبرة" : رمز رهيب لتكاثر هو في حقيقته – وعلى مقياس القيم – هباء محض ..

* * *

ما علاقة كل هذا بما كنا نقوله، الصلاة؟..

ليست مصادفة أبداً، أن ترتبط المرة الوحيدة التي فيها لفظ (صلّ) بذلك النهر العظيم، رمز الحياة الحقيقية وتدفقها..

ذلك أن هذه (الصلاة) هي وسيلتنا للوصول إلى ذلك النهر العظيم، نهر الحياة..

الآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: ١٠٨/١-٢] العطاء تم فعلاً، لكن الصلاة وحدها، هي وسيلتنا للوصول إلى ذلك "الخير الكثير"، لا شيء يجلينا عما نحن فيه، عن أنفسنا، للوصول إلى نهر الحيوية الدافقة، غير "الصلاة" - الصلاة بمعناها الأعلى، بمعناها الذي أمر بها - كتاباً موقوتاً - من أجله.. وليس بمعنى الحد الأدنى، معنى السقف الواطئ، معنى "لا أزيد ولا أنقص"..

لا شيء يأخذنا، إلى ذلك النهر، الذي يمكنه أن يحول صحراء حياتنا حقولاً زاهرة، ويحول الظلام من حولنا إلى نور مشع.. غير تلك الصلاة..

الصلاة بوصفها عملية مستمرة..

ولا يمكن أن يكون ارتباط نهر الحياة الذي تأخذنا إليه الصلاة، مجرد افتراض..

ذلك أن الذي لا يكذب أبداً، عليه الصلاة والسلام، قد قال: «مثل الصلوات الخمس في اليوم والليلة، مثل نهر جارٍ عذبٍ بباب أحدكم، يغتسل منه خمس مرات في اليوم، فهل

يبقى من درنه من شيء؟».. إنه النهر مجدداً.. والصلاة أيضاً..

(الحديث) لو قرأناه بعين تعودت على اعتبار الصلاة مجرد غسالة للذنوب التي نرتكبها بين أوقات الصلاة.. لوجدنا فيه تأكيداً لذلك.. لكن لو حاولنا النظر إليه من زاوية أبعد، لوجدنا أن الرسول الكريم لا يتحدث عن (أدران) ما بين الصلوات التي تزيلها الصلاة كلما أديت، بل عن عملية مستمرة - عن (الصلوات الخمس) ككل؛ عن المداومة عليها، باعتبارها ستزيل الأدران، وتجلوك، درناً تلو الآخر، إلى أن يظهر معدنك الأصيل.. وقد زالت عنه أقنعة الأدران.. الحديث هنا، ليس عن عملية تكفير ذنوب، يتم فيها تصفير الذنوب مع كل صلاة، وبعدها نعود للذنوب، ومن ثم نعود للصلاة، ويعاد التصفير.. وهكذا دواليك..

الحديث عن عملية تفاعل مستمرة، مع ذلك النهر - الصلاة، يجلي فيها أعماقك، وصولاً إلى أفضل ما عندك، أفضل ما يمكن لك أن تفعله..

الحديث عن "هل يبقى من درنه شيء؟" لا يتحدث عن ذنوب هنا وهناك، بل عن جذور تلك الأدران.. عن اقتلاع تلك الجذور.. عن الصلاة باعتبارها وسيلة تجعلك تتكوثر: بمعنى أن تزيد الخير في داخلك.. تنمي الخير في داخلك..

عن الصلاة بوصفها وسيلة للنماء الإنساني..

"ساهون" !

بعد سورتي التكاثر والكوثر بالضبط، تنزلت سورة أخرى، بإيقاع وسياق مضادين لسياق وإيقاع الكوثر، كأنما لترينا الصورة المضادة للصلاة بمعناها الإيجابي، ربما لأن الإيجابية لا تكتمل إلا بمعرفتنا وتمييزنا للسلبية..

السورة إذن نزلت بعد التكاثر مباشرة. وهي سورة الماعون.. وينبغي أن ننتبه إلى أنهما نزلتا معاً في فترة مكية، غير معروفة تحديداً، لكنهما حتماً في السنوات الثلاث أو الخمس الأولى على أبعد تقدير..

وهذه "المعلومة" مهمة هنا، لأن ما ترسخه السورتان عن الصلاة، هو مبكر جداً، وهو قبل فرض الصلاة بفترة طويلة، بما أن الأوقات الخمسة للصلاة لم تفرض إلا بعد المعراج (في السنوات الثلاث الأخيرة في مكة) أي بعد ثماني سنوات إلى عشر من نزول الماعون والكوثر.

طبعاً كانت هناك "صلاة"، قبل أن تفرض بشكلها الحالي، لا نعرف إن كانت تملك نفس الهيئات والأركان، لكنها كانت ما يتعبد به المسلمون لربهم..

التبكير في توضيح الإيجابي والسلبي، قبل أن تتخذ الصلاة شكلها النهائي، كان ضرورياً من أجل الدخول إلى ما سيتحقق لاحقاً من "إقامة" للصلاة.. بمعناها الشمولي..

* * *

فلنتنبّه هنا إلى أن السورة على قصرها أو كونها نزلت مبكراً، ترسم لنا صورة متقدمة جداً وصالحة لكل وقت، عن أولئك الذين يكذبون بالدين، والتكذيب بالدين قد يتخذ أشكالاً متعددة ، شكلها الأوضح والأسهل هو ذلك التكذيب الصريح المباشر، أي ذلك الإنسان الذي يجاهر بالتكذيب والجدل ويعلن عدم تصديقه وإيمانه..

وهذا النموذج متوافرٌ دوماً، وهو كان متوافراً بالتأكيد في بدايات الدعوة، لكن السورة تنبهنا هنا إلى أن هذا النموذج قد لا يكون هو النموذج الوحيد - لكن هناك نموذج آخر، لا يقل خطراً، وربما يزيد، وهو لا يعلن عن نفسه بصراحة ، لكنه يتصرف ويسلك سلوكاً يكذب بالدين..

ربما يحتمل الأمر أن يكون "مكذباً صريحاً ومجاهراً" بالإضافة إلى أنه يسلك سلوكاً مضاداً للقيم الدينية، لكن هذا سيجعل من "التنبيه" غير ذي معنى، ذلك أن المكذب العلني بالدين واضح، وكانت الدعوة الإسلامية فعلاً في حالة صراع مباشر مع نماذج كهذه، ولكن التنبيه - يتوجه حتماً إلى نموذج خفي من التكذيب، نموذج لا يتخذ موقف المجاهرة، وربما لا يضمر التكذيب؛ لكنه يمارسه عملياً عبر اتخاذه نمطاً سلوكياً هو - بحد ذاته - تكذيب....

هل هذا هو النفاق؟

هل هذا هو ما اصطلحنا على تسميته، وما وضحته آيات كثيرة لاحقة، بالنفاق؟.. في الحقيقة إن هذا مجرد

احتمال، لكن كل ما نزل من القرآن في مكة كان خالياً تماماً من أي إشارة إلى النفاق، لسبب بسيط وهو أن المرحلة المكية كانت خالية من ظاهرة النفاق، التي هي ظاهرة نشأت في المدينة، مع نشوء الدولة التي أفرزت نماذج متسلقة تبطن غير ما تظهر.. (هو أمر طبيعي تماماً ويحدث في كل التجارب بعد انتصارها وعبورها من مرحلة النضال إلى تسلم الإدارة) أما في مكة فقد كان للانتماء إلى فئة المؤمنين ثمن باهظ لا تتحمله الطبيعة الانتهازية للمنافقين.. إذن ما ماهيّة هذا التكذيب الذي ترسخ الآيات أنه ليس نمطاً جهرياً من التكذيب؟..

إنه ببساطة خلل في الفهم قد يؤدي إلى التكذيب ، إنه فصل للإيمان عن العمل، للعقيدة عن السلوك، إنه أن "تصدق" بفكرة يطرحها الدين، ربما لأنها "راقت" لك، وربما لأنها "مقنعة"، أو ربما لأنك وجدتها أكثر تماسكاً ومنطقية مما هو مطروح من أفكار؛ لكن ذلك كله لن يتحول إلى أي سلوك عملي؛ لن يتفعل ليخرج من إطار الفكرة إلى التطبيق.. وذلك يكون أحياناً له مفعول "التكذيب" نفسه عندما يصاحب الفكرة الإيجابية سلوك سلبي مضاد.. وهي (الهوة) الممتادة بين الفكر والسلوك التي تسيء للفكرة وتنفر الناس منها.. وهي (هوة) تجعل من المبادئ تتحول إلى شعارات تثير سخرية الناس وضحكهم بدلاً من أن تجعلهم يؤمنون بها ويسعون إلى تطبيقها. وهو أمر معادل موضوعياً للتكذيب..

إذن نحن هنا أمام (فصام) مبكر بين الفكر والسلوك،

مساوٍ تماماً للتكذيب، حتى لو يأخذ شكل التكذيب اللفظي..

ما المثل الذي جاء في الخطاب القرآني ليجسد "حالة هذا التكذيب بالدين؟" ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١٠٧/٢-٣]..

تهميش المظلوم ...

عملية دَعّ اليتيم هنا ليس عملية "زجر" و "نهر" شخصية فحسب، بل هي مرتبطة بنظام اجتماعي ظالم كان يهمش بعض الفئات العاجزة، فقد كان عرب الجاهلية، لا يورثون النساء ولا الصغار بحجة أن لا إرث إلا لمن يحمل السيف، أي كانوا يدفعونهم عن حقهم، وهو قول القرطبي وغيره في تفسير الآية. فالدعُّ هو الدفع، والدفع هنا هو تهميش اليتامى والنساء وتعريضهم للظلم لمجرد أنهم الأضعف.. المثل الأول إذن كان عملية (ظلم) يشارك فيها هذا المكذب الخفي ولو بالرضوخ لعرف اجتماعي سائد..

لكن المثل الثاني ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١٠٧/٣] يتجاوز هذا. فالمثل الأول كان مشاركة في "فعل ظالم". أما المثل الثاني فالسلب والتكذيب يكمنان في عدم الحث على فعل إيجابي، أي إن الأمر ليس في "إطعام المسكين"؛ بل في الحض عليه، ولن يكفي هنا أن يطعم المسكين ليخرج من دائرة التكذيب بالدين؛ بل مطلوب منه أن يحض عليه.. والصوت في الحض يوحي بقوة أكبر من مجرد الحث كما هو واضح؛ الحض أقوى

وأشد كما لو أنه يستحق أن يكون قضية للحياة لا مجرد نصيحة عابرة!

ما علاقة كل هذا بالصلاة؟

.. كل سورة - مهما قصرت - تمتلك وحدة موضوعية تتجلى في كل أركانها، والتهديد الشديد للمصلين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ١٠٧/٤]، يندرج ضمن إطار التكذيب بالدين نفسه المتمثل في الفصام بين الفكر والسلوك. **فالغفلة عن معاني الصلاة وآثارها على صعيد الفرد والمجتمع** هي (سهو) أيضاً، بل هي السهو بعينه، دون أن يتعارض ذلك بالضرورة مع كونها "تأخيرها عن وقتها" وهو التأويل السائد للآية، مع أن ذلك لم يكن له معنى وقت نزول الآية، لأن "مواقيت الصلاة" لم تكن قد فرضت آنذاك، إضافة إلى أن السياق العام للسورة ككل ينحو نحو هذه العلاقة الجوهرية بين الفكر والتطبيق، والإيمان والعمل، وجسر تلك الهوة والفصام الذي قد يحصل بينهما..

فالتهديد هنا للمصلين الذي يغفلون عن تفعيل صلاتهم ويختزلونها إلى مجرد حركات دونما أثر وامتداد على حياتهم ومجتمعهم، وهو تهديد من باب أولى لغير المصلين. وحتى لأولئك الذين يفعلون الخير دون أن يرتبط ذلك بالمنظومة الدينية، ذلك أنهم يدخلون أيضاً في باب آخر ووجه آخر من أوجه التكذيب بالدين..

الرياء وأنواعه

يتوضح ذلك أكثر في ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ١٠٧/٦-٧]..

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أن للنص القرآني المطلق والصالح لكل زمان ومكان عدة قراءات وامتدادات لا تلغي واحدة الأخرى ولا تناقضها، بل تتراكب بعضها مع بعض في آفاق متصاعدة..

وإذا كانت قراءة لاحقة للنص يمكن أن تفهم من الرياء هنا بأنها شكل من أشكال النفاق، وهي قراءة صائبة تماماً، فإن ذلك لم يكن ممكناً على الأقل وقت نزول الآية، لأن النفاق نفسه لم يكن قد ولد أصلاً..

الارتباط بين النفاق والرياء ثابت قرآنياً.. ومن المرتين اللتين ورد فيهما لفظ المراءاة كانت هناك واحدة مرتبطة بالنفاق ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢/٤]..

ولنتنبه أن "الرياء" هنا جاء مع الصلاة أيضاً - لكن فلننتبه أيضاً أن الآية وضحت أنهم "يراؤون" الناس.. أي إنهم يصلون من أجل أن يراهم الناس وهم يصلون. وهذا بالضبط مثل نموذجي من أمثلة النفاق..

لكن يبدو أن هناك نوعاً آخرَ من الرياء، فالآية التي نحن بصددها في سورة "الماعون" لا تحدد أنهم يراؤون

"الناس"، كما في سورة النساء. يراؤون من إذن؟.. أليس هذا هو الرياء؟..

ربما كان هناك رياء آخر ..يرائي فيه فريقٌ أنفسَهم.. يختزلون فيه الصلاة إلى حركات "مرئية" ويقنعون أنفسهم بأنهم يؤدونها، مجرد شيء يرى من الأداء مقطوع الصلة بأي شيء آخر غير مرئي (في أعماق النفس) أو بتأثيرات غير مرئية في المجتمع (حتى لو صارت مرئية لاحقاً)..

يحدث هذا كثيراً.. نرى أنفسنا نصلي.. ونقتنع، أو نقنع أنفسنا، بأننا قد أديناها لمجرد أننا "نرى" أننا نصلي..

الماعون : أكثر من مجرد صحن طعام

تنتهي السورة، بالمثل الثاني الذي وصف أولئك "الساهين" عن الصلاة، وهو المثل الذي يلملم جوانب السورة ووحدتها الموضوعية، وهو المثل الذي سيتوج السياق كله، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ١٠٧/٧]..

للوهلة الأولى سيبدو أن "منع الماعون" مشابه لإطعام المسكين الذي مر قبل قليل، لكن هذه النظرة تجعل من "الماعون" مجرد الصحن أو القدر الذي نتناول فيه الطعام..

هذه النظرة جزئية جداً، فالماعون كان يعني عند العرب - بالإضافة إلى القدر والآنية اللتين استقر عليهما معنى الماعون في أذهاننا - الفأس والدلو، باتفاق جميع التفاسير.. وقد قيل، كذلك، إن الماعون يعني المنفعة

العامة.. فهل يعني هذا أنهم كانوا إذا طلب منهم إعطاء الفأس أو الدلو، امتنعوا؟..

الأمر طبعاً أعقد وأعمق من ذلك - وإن كان لا شيء يعارض أنه يعني ذلك في مستوى معين من مستوياته..

لكن، فلنتنبه هنا إلى أن الماعون هو لفظ يشمل جميع أدوات إنتاج في مجتمع ما، فهذا ما كانه الفأس والدلو على الأقل في مجتمع فقير في تلك الفترة، بل إن العلاقة بين الفأس والدلو والآنية، وبهذا الترتيب بالذات، يرسم دورة إنتاجية كاملة ممثلة في أدوات الإنتاج: فالفأس يمكن أن يحرث الأرض، والدلو يمكن أن يسقي الأرض، ويمكن للآنية أن تحتوي ناتج ذلك كله..

و "المنع" هنا كان أكثر من مجرد "امتناع عن المنح"؛ لقد كان محاولة لكسر هذه الدورة الإنتاجية، إما عبر تقييد "اليد" ومنعها من العمل واستخدام تلك الأدوات؛ عبر مفاهيم تكرس البطالة وتروج للكسل والاستسلام وتعطل الفعالية، أو عبر احتكار حقيقي لهذه الأدوات بجعلها في أيدي فئة محدودة من ملأ كل زمان ومكان..

الأمر في هذا السياق، يقول لنا بوضوح، إن "السهو" عن المعاني الحقيقية للصلاة: سيمنع هذه الدورة الإنتاجية.. سيقطعها..

بل إن السهو (بمعنى الغفلة عن مواقيت الصلاة) وهو المعنى السائد، يدخل أيضاً في هذا المنع من الإنتاج.. وتقديس مواقيت الصلاة يورث احترام الوقت الذي هو

عنصر أساسي من أي "دورة إنتاجية" حقيقية.. الصلاة هنا، على الأقل، في جزء منها، هي مفهوم شامل للإنتاج..

بل إنها "أداة" إنتاج بحد ذاتها: تنتج فرداً جديداً، ومجتمعاً جديداً.. فرداً ومجتمعاً يجيدان استخدام "الأدوات" لبناء عالم آخر أكثر عدالة وتوازناً..

الصلاة نفسها، هي أداة هنا..

المهم، ألا نكون من "الساهين"..عن معانيها..

* * *

قد يكون ذلك كله، بعيداً جداً عن كل ما تعودنا فهمه عن دور الشعائر عموماً، والصلاة خصوصاً..

الصلاة من أجل أن تكون شخصاً أفضل؟.. الصلاة من أجل أن تتغير؟.. الصلاة عنصراً يدخل تفاعلك مع نفسك ومع العالم من حولك؟..

الصلاة، من أجلك؟!..

ذلك كله غريب.. ربما.. لكن ربما هو ما يجب أن يكون.

فلنبحث الآن في معنى "الصلاة"..



الفصل السادس

الصلاة عبر المجهر، الصلاة عبر التلسكوب

ينتشر القول بأن الصلاة، تعني من جملة ما تعني، الصلة بالله عز وجل.. على الرغم من تشابه اللفظين، وعلى الرغم من أن معنى الصلة متضمن حتماً في أي صلاة، إلا أني أشير هنا أن معنى "الصلة" لم يرد في أي من كتب اللغة العربية في الجذر اللغوي للصلاة..

(صلّى)، بكافة معانيها، ومشتقاتها، لم ترد بمعنى اتصل، أو وصل، وإنما ورد فيها معانٍ مختلفة، بعضها التصق بمعنى الصلاة، وبعضها لم يلتصق، وإن كان هذا لا يعني عدم وجود رابط بالمعنى..

عبر المجهر اللغوي، نرى ماذا كان الفعل (صلى) يعني عند العرب عندما نزل فيهم القرآن الكريم، ثم عبر التلسكوب، نرى ماذا يمكن أن يجسد ذلك من معانٍ على أرض الواقع؛ الذي يجب أن يكون، وليس ما هو كائن الآن..

المسافة بين ما تحت المجهر، وما هو في التلسكوب قد تكون بعيدة..

لكن مقاييس البعد.. نسبية جداً..

وما تقطعه أنت في سنة.. يقطعه الضوء في أجزاء من الثانية.. وعندما يستحيل الفهم ضوءاً ساطعاً، فإن المسافة بين المجهر والتلسكوب ستتلاشى.. على الأقل هناك هذه الاحتمالية..

وسيصير البعيد قريباً..

على الأقل لن يكون مستحيلاً..

* * *

مجهرياً، الصلاة تعني الدعاء. وهذا معروف وسائد. ويربط عادة بحديثه عليه الصلاة والسلام، "الدعاء مخ العبادة"..

لكن المعنى، بين المجهر والتلسكوب، قد يكون أكثر من هذا..على أهميته ..

ولو أننا تابعنا معنى الدعاء هنا، لوجدناه مختصاً بالدعاء بالخير.. أي إن الصلاة، في لسان العرب ولغتهم، لم تكن تعني أي نوع من الدعاء، بل تعني حصرياً "الدعاء بالخير.." وهذا يجعل من الصلاة مرتبطة فوراً بالخير، أي إنها منحازة تماماً في هذا العالم الذي يتنازعه الخير والشر، إلى جانب محدد سلفاً: الخير..

يقول لك المعنى هنا :ليس من حياد في هذا العالم، الحياد زيف ووهم. الحياد هباء.. في هذا العالم هناك الخير، وهناك الشر، هناك الأبيض، وهناك الأسود. ليس

هناك من لون ثالث. ليس هناك من خيار ثالث. والصلاة تحدد بالضبط الجانب الذي ينبغي أن تكون فيه، جانب الخير، جانب الأبيض..

* * *

والدعاء، في جوهره، هو أكبر وأعمق من مجرد أن يكون عندك طلب ما، منه عز وجل..

الدعاء في جوهره، هو أن عندك قضية. لديك دعوة ما. لديك هدف. لديك ما يملأ عليك حياتك لدرجة أنك تطلب منه عز وجل أن يعينك فيها..

وهي ليست أي قضية.. إنها ليست قضية فحسب..

بل هي قضية خير حصراً..

إنها الانحياز إلى جانب محدد في الصراع الدائر في هذا العالم.. بل إن الأمر حتى أكبر من ذلك..

إنه أن تكون أنت حامل هذه الدعوة، حامل هذه القضية، أنت المنادي بها..

وهي قضية خير دائم، لا انفكاك عن الخير فيها..

تعبر عنها من خلال "الصلاة"..

* * *

لعله من نافلة القول هنا، أن إقامة الصلاة، بهذا المعنى، ستعني إقامة الخير، إنجازه وتحقيقه على هذه الأرض..

والإقامة هنا، تعني تحقيق تلك الدعوة، تحويلها من "دعاء" إلى واقع..

لزوم ما يلزم

المعنى المجهري الثاني هو "اللزوم" - وهو معنى مستخدم في الأدبيات الدينية وفي كتب الفقه أيضاً. ذلك أن معنى "اللزوم" يوحي فوراً بالدوام والاستمرار، وهو معنى وارد في الصلاة، التي يتطلب أداؤها مثابرة وصبراً والتزاماً ..

لكن، المعنى التلسكوبي، سيفتح آفاقاً أخرى، فاللزوم يعني أنك لن تكون حقاً، لن "تكتمل"، **إلا عندما تحوز هذا الذي" يلزمك"**، يعني ذلك أنك ستكون ناقصاً أبداً ما لم تقم بالصلاة .. لأنها ستكون دوماً لازمة ..

الصلاة، بالمعنى التلسكوبي لهذا المعنى المجهري، هي ما تكتمل به أنت.. ما يقودك إلى أن تكتمل.. (حتى لو لم تكتمل، عملياً)، فهي ما يلزمك دوماً لكي تكون أفضل، تغادر موقعك نحو موقع أفضل.. الصلاة - اللزوم، هي لزوم ما يلزم، لزومك أنت لكي تكون ما خلقت من أجله..

مكان واحد دوماً

واللزوم أيضاً، يعني البقاء في مكان واحد.. وقد جاء اللفظ القرآني خاصة في آيات الوعيد بالمكوث في جهنم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٩]، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/١٤-١٥] ..﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٠-٣١]..

والربط هنا، باللزوم في جهنم، يوحي بالمكوث هناك، بالبقاء هناك، فلفظ (صلى) يصور في سياق عدم المغادرة، في سياق "لزوم" مكان ما..

ما الذي يعني هذا تلسكوبياً، على الجهة الأخرى، من المعاني؟.. ما المكان الذي توحي به الصلاة؟.. يعني ذلك كله، أن صلاتك، هي بطريقة ما، لزوم وضع معين، وعدم تركه حتى بعد انتهاء "وقت الصلاة".. إنه ألا تترك قيامك وركوعك وسجودك بعد أن تنتهي منها، بل أن تجسد حياتك هذه الأوضاع كلها، أن تكون قائماً وراكعاً وساجداً في سائر أفعالك، بكل ما يعنيه ذلك..

إنه ليس أن تصير حياتك مكاناً محدوداً تلجأ إليه، خمس مرات في اليوم، بل أن تصير حياتك كلها.. مكاناً تلزمه، وتأخذه معك أينما ذهبت..إنها تستمر، وذلك من أسس معانيها، ذلك أصلاً من معنى الصلاة بالتعريف: اللزوم.. أن تلزمك دوماً، تصير جزءاً منك، كما أن تكون جزءاً منها.. كما لو أنك عبر هذا اللزوم ، تتماهى معها لتكون مكاناً جديداً..

النضوج المضيء..

ومن المعاني المجهرية الأخرى للفظ «صَلَّى»، الاحتراق، وهي على وجهين، الوجه الأول بمعنى التسوية، مثل صلى اللحم... يعني سواه، والوجه الثاني بمعنى الفساد والإحراق، ويقال: "أصلى" بدلاً من "صلى" هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٤/٣٠] ..﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٢].. إلخ...

بين التسوية والشيّ، يقع هذا المعنى المجهري للصلاة، فهل هناك من معنى عندما ننظر من خلال التلسكوب؟..

بالتأكيد.. مع ما يبدو عند الوهلة الأولى من بعد شاسع، بين الصلاة، والحرق أو الاحتراق، إلا أن الوهلة الثانية، التي ستجرد المعنى من تفاصيله، ستوحي لنا بمعنى "النضوج"، فصلى اللحم بمعنى تسويته، يعني إنضاجه، إيصاله إلى نقطة الكمال، إلى النقطة التي أعد من أجلها، حتى التي خلق من أجلها..

وهذه هي الصلاة أيضاً، (عندما تكون الصلاة فعلاً)، إنها تساعدك على النضوج، على التحول، على إنجاز ما خلقت من أجله، على "حرق" المراحل باتجاه الاستواء..إنها تأخذك إلى حيث التدرج بالخلق وصولاً إلى ما خلقت من أجله.. إنها، في جوهرها، عملية تغيير الذات ، الصلاة بهذا المعنى هي عملية تغيير داخلية تشبه الاحتراق في شدتها...

لا تكون رحلة النضوج هذه سهلة أبداً، بل إنها تشبه أحياناً احتراقاً داخلياً، ألم عظيم ومشقة ليست أقل من ألم ومشقة ومعاناة الولادة، وليست أقل قداسة في الوقت نفسه، فتغيير الذات مخاض عسير، وصامت، الصراخ معه لا يجدي كما قد يفعل مع آلام المخاض الاعتيادي، بل هو يحتاج إلى صبر دؤوب، واصطبار حقيقي، ومتابعة لهذا الصبر وذلك الاصطبار.. وينتج عن ذلك كله معاناة حقيقية، هي في جوهرها احتراق حقيقي، وصولاً إلى النضوج.. إلى التغير..

نعم، عبر التلسكوب يبدو معنى الاحتراق في الداخل، قريباً من الصلاة في جوهرها.. بفارق أنه الاحتراق المضيء، الذي يضيء لنا الدرب نحو ما يجب أن نكون..

إنه الضوء، سنحترق قليلاً عندما نمسكه، لكن لا بد من ذلك.. لا بد من الاصطبار على ذلك.. من أجل أن "نكون" حقاً..

عمودك الفقري

ومن المعاني المجهرية أيضاً، أن العرب كانوا يطلقون اسم "الصلاة" على (ما يكتنف) أي ما يحيط، بعظم العصعص ..

مجدداً، سيبدو هذا بعيداً عن (الصلاة) التي نعرفها.. لكن عبر قراءة النظرة الثانية، سنرى في المعاني ما لا يبرز إلا رويداً رويداً، فالعصعص، الذي يعتبره (التطوريون) عظماً زائداً عن الحاجة، يمثل بقايا ذنب (يفترض أننا كنا نملكه قبل أن نصير بشراً!) هو في حقيقته قاعدة العمود الفقري، وركيزته الأساسية، هل هو بداية العمود الفقري؟.. أم هل هو نهايته؟.. يعتمد الأمر على المكان الذي ننظر منه إليه - يعتمد الأمر على زاوية الرؤية، لكن العصعص هو النقطة التي يتسلق منها العمود الفقري، فقرة تلو أخرى، إلى أن يصل إلى القمة العالية، الدماغ..

كذلك الصلاة، لو أنها كانت فعلاً صلاة، فهي ما يجب أن يرتكز عليه العمود الفقري الآخر لنا؛ العمود الفقري

النفسي لا العظمي، العمود الفقري الذي يلم أطرافنا ويكون مركز الثقل في تكويننا الشخصي، وصولاً إلى "القمة العالية"، النموذج الذي يجب أن نكونه، والذي ستكون الصلاة، نقطة انطلاقنا إليه..

نعم، إنها فعلاً ذلك العظم، لكنه ليس زائداً عن الحاجة، بل إنه مركز الثقل كله.. وهو فعلاً برهان من براهين التطور والارتقاء.. لكن ليس النمط الدارويني منهما الذي هو محض حتمية بيولوجية، بل التطور والارتقاء المرتهنين بإرادة الإنسان، بإرادته ووعيه في التمايز، الارتقاء عن كل مخلوقات الله..

والصلاة، هي بالتأكيد، كما مرّ سلفاً، نقطة التمايز التي تمثل التطور والارتقاء الحقيقيين..

ليس "بقايا ذنب" إذن، بل دليل على التمايز عن بقية المخلوقات..

نبتة قوية الجذور

ومن مشتقات (صلى) أيضاً - تحت المجهر - (الصِّلِّيان)، وهو نبت له سَنَمَةٌ عظيمة كأنها رأس القصبة، إذا خرجت أذنابها تجذبها الإبل، والعرب تسميها خبزة الإبل، و كان إذا جاء الرجل ليقتطعها، مال، من شدة قوة جذورها، أما الإبل، فتقتطعها مع جذورها، لهذا قيل في الأمثال: «جُذَّها جَذَّ العَيْر الصِّلِّيانة» أي اقطع شيئاً من جذوره كما تفعل الإبل مع "الصِّلِّيانة"..

هذا مجهرياً، فما الذي يوحي به هذا المعنى بعد

تجريده من تفاصيله..؟ ما الذي نراه من خلال التلسكوب..؟

الصلاة في حياتنا، هي تلك النبتة التي يمكن لها أن تتحدى الجدب في حياتنا؛ أن تنبت برأس كبير وجذور قوية، رغماً عن القحط والصحراء..

يمكن للصلاة، عندما تكون حقاً صلاة، أن تكون خبزنا، لأنها ستعلمنا كيف نكون ناضجين بما فيه الكفاية لنصنع خبزنا بأنفسنا، الصلاة هي خبزنا الحقيقي لأنها ستجعلنا راشدين بما فيه الكفاية لنزرع قمحنا ونسقيه ونرعاه ومن ثم نحصده لنطحنه ونأكل خبزنا صنع أيدينا..

يمكن للصلاة أن تجعلنا أقوياء، بجذور صلبة، بأصل ثابت، وفرع في السماء، فرع لا تقتلعه الرياح وإن هزته، يمكن للصلاة أن تجعلنا هكذا: بالأصل الثابت والفرع (المثمر) الثابت..

تثمرنا الصلاة، تقودنا في ذلك الدرب (الوعر أحياناً)، نحو الإثمار.. نحو أن نطرح ثماراً، أو أن نكون أنفسنا شجرة تؤتي أكلها كل حين..

* * *

كل هذه المعاني المجهرية - لغوياً، المترادفة تلسكوبياً تكون جوهر الصلاة، توضح وظيفة الصلاة الحقيقية في حياة كل منا، بل وظيفة الصلاة في الحياة جملةً..

فدعوة الخير، الاستواء نضوجاً، والركيزة التي تشكل

عتبة العمود الفقري النفسي، والإنبات والإثمار في أقسى الظروف، بأقوى الجذور.. ولزوم كل هذا والتوحُّد معه هو جوهر الصلاة.. وهو الهدف الذي يتحقق منها عندما تترك لتؤدي دورها دون أن تتدخل في ذلك مفاهيم "إسقاط الفرض" أو "غسالة الذنوب" السائدة التي تشوش على المهمة الأصلية، أو يمكن أن يتحقق عندما نكون واعين بذلك كله.. مستعدين له.. مقدرين لقيمته ولحاجتنا الماسة إليه..

فالوعي بكل ذلك هو المفتاح الأول للتغيير، الذي تقدمه لنا الصلاة.. في أعمق وظائفها ومعانيها..

الآفاق الممتدة لمعاني الإقامة

سبق أن ذكرنا، ونحن نبحث في أمر الصلاة، أنها لم تأت أبداً، بصيغة الأمر المنفرد - إلا مرة واحدة، مبكرة جداً، مرّ ذكرها.. في سورة الكوثر..

عدا هذا، فلفظة الصلاة، لا تأتي إلا ومعها لفظ آخر هو: "الإقامة"..

وترتبط اللفظتان، في علاقة متلاحمة، مثل زواج لا طلاق فيه، لتشكل مفهوماً آخرَ؛ لا علاقة له طبعاً بمفهومنا الحالي للصلاة وممارستنا لها..

إقامة الصلاة.. أبداً ليست "الصلاة" وحدها..

لا يوجد أصلاً شيء كهذا: صلاة بلا إقامة، في الإسلام..

وهذا يعني أنها ستكون حتماً صلاة مختلفة.. بوظيفة مختلفة..

* * *

والتفسير السائد، لمعنى إقامة الصلاة، يعني إدامتها والاستمرار عليها.. وبالتأكيد لا شيء سيغير من هذا التفسير ومن هذا المعنى، لكن ربما سيكون هناك آفاق أخرى، لا تلغي الآفاق الموجودة في معنى الاستمرار.. لكن تضيف أبعاداً أخرى..

* * *

إنه شيء يشبه تشييد شيء ما.. كما لو أنك "تقيم" مبنى كبيراً: مدرسة، أو مشفى، أو مصحاً، أو مسجداً، أو شيئاً أكبر من هذا كله.. الكلمة تشير ليس إلى "أداء" فعل ما.. بل إلى بنائه.. إلى تشييده.. إلى جعله منتصباً شامخاً..

فهمنا العادي لأداء الصلاة - ولو كان مع الخشوع المتعارف عليه - لا يقدم صورة تشييد شيء ما.. أو بنائه..

لكن فهماً آخر، للصلاة، ولوظيفتها، وللمقصد منها، سيقدم لنا الصورة الأقرب.. خاصة عندما نضعها في إطارها الجماعي، ستظهر لنا صورة أفراد "مجتمعين" على بناء شيء ما..

يقيمون شيئاً ما..

ومفردة "إقامة" التي التحمت بالصلاة في الخطاب القرآني.. وردت أيضاً - في مواضع أخرى منفردة عن الصلاة.. ولو أننا بحثنا في هذه المواضع، لرأينا فيها روافدَ تضيف إلى معنى إقامة الصلاة.. وإلى فهمنا لإقامة الصلاة..

* * *

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ١٨/٧٧]

فالإقامة هنا، هي بمثابة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، من مجتمع على وشك الانهيار.. مجتمع على وشك السقوط في القعر..

الإقامة هنا هي إصلاح ما يمكن إصلاحه، ربما بوضع أسس جديدة، أو ركائز جديدة، أو مؤونة جديدة..

المهم أنها تحافظ على مجتمع، تضم جدرانه المنهارة، كنزاً ما..

* * *

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٥/٦٦].

الإقامة هنا، تعني نقل "التوراة والإنجيل" - ومعانيها ووصاياها تحديداً - من عالم القيم المجردة، عالم الألواح الحجرية واللفائف الورقية، إلى ملكوت الواقع، ملكوت التجربة الإنسانية، وبوتقة تفاعلها وتوازنها..

إنه "الفعل" في أوضح صوره: أن تتحول القيم إلى واقع معاش..

* * *

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٥٥/٩]..

الإقامة هنا، تحقيق العدل، ومراقبته، والميزان - الذي ورد في الآية - ليس آلة الوزن والعقل فحسب.. إنه مفهوم عام وشامل، وهو مرتبط بالكون القائم على التوازن، كما تشير إلى ذلك الآيات السابقة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٥٥/٧] فالإقامة هنا تعني تحقيق عدالة أرضية متوازنة ومتسقة بمثل اتساق البناء الكوني..

* * *

من الخيال إلى الواقع

كل معاني الإقامة، واستخداماتها، توظف من أجل سياق فاعل، من أجل رسم معنى أكبر وأعمق وأكثر متانة من الإدامة المجردة أو الأداء المجرد..

إقامة الصلاة إذن، هي تشييد لأسس من الأساسات التي يقوم عليها المجتمع، حفرٌ في العمق لتكوين القواعد، تشييد للبنية التحتية التي لا يمكن لأي بناء أن يقوم فوق الأرض من دونها..

إقامة الصلاة إذن، هي تنزيل القيم المجردة إلى أرض الواقع، أو جعل الواقع مؤهلاً لاستلام القيم والتفاعل معها من أجل واقع أكثر توازناً، وقيم أكثر فاعلية..

إقامة الصلاة، هي أن تكون الصلاة (تقوم) بدورها الذي فرضت من أجله، دورها (القيادي) في البناء، في الإصلاح إن كان الإصلاح ممكناً، وفي التخطيط لبناء قادم من عالم التجريد، وفي تنفيذ هذا البناء على أرض الواقع..

بين "الصلاة" و "إقامة الصلاة"..

والفرق بين (الكوثر) الخير الكثير المرتبط بلفظة (صلِّ) منفردة، وبين الالتحام في (إقامة الصلاة).. أن الأولى مرتبطة بنماء نفسي وشخصي لفرد بعينه..

أما إقامة الصلاة، فالمعنى لابد أن يرتبط بجماعة ما، بمجتمع قيد التكوين والبناء، بفكرة تمهد لقيام حضارة ما، وبذرة تحتضنها أرض مجتمع..

لذلك كانت مرحلة "الكوثر" مبكرة، لأنها ارتبطت بشخص الرسول الكريم، ونمائه النفسي، وكانت الصلاة - كما أمرته السورة الكريمة - هي الوسيلة الأنجع لتحقيق هذا النماء، فكانت كافية لجعله يتحمل تلك المسؤولية الكبيرة لاحقاً: مسؤولية تغيير العالم..

أما إقامة الصلاة، فجاءت في مرحلة لاحقة، عندما صارت الخميرة جاهزة للتفاعل، مرحلة ما بعد الإسراء، وما قبل الهجرة.. وصارت القيم مشرئبة ومتحفزة للتحقق.. وبدأ التنور بالفوران، بدأ جبل القيم المجردة بالتمخض.. وقد كان..

إقامة الصلاة : النهوض عبر الصلاة

والمعنى الأكثر فاعلية، بين كل المعاني الفعالة التي ارتبطت بإقامة الصلاة، هي أن الفعل أقام، مشتق من الفعل: قامَ، بكل معنى هو ضد السكون.. ضد القعود.. ضد السبات.. ضد اللافعل.. ضد العدم..

إنه معنى النهوض.. معنى النهضة.. معنى أن حضارة ما، ربما مجرد حلم مستحيل في البداية، تحوي بذرة نهوضها، من واقع مليء بالخمول والسبات..

وإن شرارة ذلك النهوض، قد تقدح من القيام للصلاة.. بمعنى مختلف عن الأداء المجرد طبعاً..

* * *

إقامة الصلاة، بهذا المعنى، هي إقامة دورة تدريبية تستغرق عمرك بأكمله، منذ أن تبلغ سن الحلم؛ إنها دورة تدريبية تلتزم بحضورها خمس مرات كل يوم، تقصيرك في الحضور، سيؤثر حتماً في أدائك خارجها، حضورك فقط لمجرد الحضور، ليشطب اسمك من سجلات الغائبين، سيؤثر أيضاً في أدائك خارجها، حضورك دونما تركيز، دونما اهتمام لقيمة التدريب، أو لأهميته فيما تفعله بعدها، سيؤثر حتماً في أدائك.. وعلى دورك..

إقامة الصلاة، هي فعلاً من أجل ذلك.. من أجل أن تكون مؤهلاً لما كان السبب في خلقك، إنها من أجل أن تشحذ قدراتك، وتوجه مهاراتك، وتعدل من مسارك،

وتنظف ما تراكم فيك، ترمي بعضه إلى حيث يجب أن يمحى، وتعيد تدوير بعضه الآخر، وتهضمه وتوظفه من جديد ربما في مسار آخر..

إقامة الصلاة، هي دورة تدريبية تعيد فيها شحن بطاريتك التي ستستهلك طاقتها في أوقات ما بين الصلوات، ضخ المعاني، في كل ركن من أركان الصلاة، بل في كل حركة منها هو بمنزلة ضخ الطاقة فيها، فيك..

إقامة الصلاة، هي بمثابة دورة تدريبية على "تسديد" الهدف في المرمى، هل يتنازل "هدّاف" محترف عن تدريبه؛ إلا إذا كان يودّ تضييع الفرص.. الصلاة هي التي تجعلنا كيف نحدد الهدف أولاً ثم نسدده..

الصلاة من أجل تغيير العالم

تقدم لنا سورة "المؤمنون"، صورة عن ذلك كله، عن الصلاة التي تغير المصلين، والمصلين الذين يغيرون العالم..

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-١١].

الرؤية السائدة ربما تعاملت مع بعد واحد في هذه الآيات، لكن الآيات القرآنية لها من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، وربما أكثر، البعد الواحد لا يجعلنا نرتفع عن الأرض، أما الأجنحة بعضها مع بعض، فهي تجعلنا نحلق نحو أعالي المعاني..

"أفلح" هنا تعامل تقليدياً بأنها الفوز والنجاح، وهذا صحيح لا جدال فيه، لكنها تحتوي أيضاً على معنى، العمل في الأرض، الفلاحة، قطع الأرض وشقها وإعدادها للبذار ومن ثم للإثمار.. للحصاد..

والمعنى هنا، لا يقتصر على الزراعة (مع أنها كانت نقلة نوعية في نظرة عرب الجاهلية الذين كانوا يحتقرون العمل اليدوي برمته) لكنه يتجاوز الأمر إلى المعنى الواسع للعمل في الأرض.. للاستخلاف في الأرض..

ولا يمكن هنا أن نفارق المعنى التقليدي للفلاح، بالفوز والنجاة، فالتقابل بين الاستخلاف في الأرض وبين الفوز والنجاة (دنيوياً وأخروياً) أمر محتم وأكيد..

أول صفة لهؤلاء الذين حققوا الفلاح الاستخلاف، ليست مجرد صفة أولى، إنها نقطة الانطلاق العملية الأولى، كان "الإيمان" هو منصة وعيهم الفكرية، لكن الرؤية الفكرية، مهما كانت متماسكة وثاقبة، لا تغير العالم دون بشر يجعلون هذه الرؤية عدسة لاصقة على عيونهم، يتغيرون من خلالها، ويغيرون العالم من خلالها وبها..

الخشوع : تفاعل التغيير

وهكذا، فإن أول ما يذكر عنهم "أنهم في صلاتهم خاشعون"، وللأسف فقد سيطرت على أذهاننا صورة أحادية عن "الخشوع في الصلاة"، وهي صورة تتلخص في بكاء خاشع، أو الوقوف على حافة البكاء على الأقل..

الخشوع في جوهره أكبر من ذلك، وقد لا يتطلب بالضرورة وجود دمع هاطل، كما أنه لا ينفيه بالضرورة، إنه، بلسان العرب، الهبوط إلى الأرض(١)، ولو بالنظر، برمي البصر إلى الأرض، ويعد ذلك إشارة على الخضوع والذلة - كما في ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ٢٠/١٠٨] ولكنها أيضاً مرتبطة بالأرض، فالأرض الخاشعة، في لسان العرب هي الأرض الهامدة غير الخضراء التي تثيرها الرياح فتغيرها، يوضح ذلك في الآية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٤١/٣٩].. ويعني ذلك أنها مستعدة للتغير، جاهزة للتفاعل مع المعطيات الجديدة، سواء كان ماءً، أو ريحاً؛ الماء لتجعلها خضراء، والرياح لتعيد تشكيلها.. وفي الحالتين، فإن التغير هو صفة ملازمة للخشوع، وكذلك فإن الخشوع في الصلاة، الذي هو أول ما ذكرته الآيات.. هو في حقيقته تغير عبر الصلاة، تغيراً داخلياً عميقاً، يكون

(١) لا بد من التذكير هنا بأن هذا المعنى يزداد توهجاً عندما نتذكر الارتباط بالأرض في "أفلح" و التي ذكرت في الآية قبلها..كما أن المعنى المشترك للفلاحة والخشوع سيتوهج أكثر عندما نتذكر أن اللفظ "صلى" كان يشير إلى نبتة قوية الجذور

أحياناً مؤلماً لدرجة البكاء، ويكون أحياناً أعمق وأكثر إيلاماً مثل مخاض لا تجدي معه الدموع ولا الصراخ..

المعاني في أعاليها ...

وما الذي يحدث بعد هذا التغير..؟ تأتي الآيات في سياقها لتسرد لنا، الرؤية ذات البعد الواحد لن تجد أكثر من الخلق الحسن والسلوك القويم، لكن تعدد الرؤى سيكسب ذلك السياق أعماقاً أبعد ..فالإعراض عن اللغو، واللغو هو أي سقط من الكلام والفعل، أي كل ما هو تافه مسطح بلا غرض ولا اعتماد من الأفعال والأقوال؛ هو ليس إعراضاً لمجرد الإعراض، بل لأنك مشغول بقضايا أهم - لأن لديك في حياتك ما هو أهم، وأغنى، وأجدر، لأن وقتك المحدود على هذه الأرض أثمن من أن يضيع فيما هو "لغو"..

"فعل الزكاة" في ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤] يوحي بصورة أكثر عمقاً من مجرد إنفاق المال بالطريقة التقليدية، فهم للزكاة فاعلون، وليس مجرد مؤدين، والزكاة هي ذلك النماء الإنساني قبل كل شيء، قد تتغير التسميات من عصر لآخر، بآليات وأساليب وربما أهداف مختلفة، أما "الزكاة" فهي ذلك النماء الإنساني متعدد الآليات والأساليب ولكن لذات الهدف الواحد، إنماء الإنسان الفرد من خلال إنماء الجماعة، وليس إنماءه على حساب المجتمع، ولا إنماء المجتمع على حسابه، بل أولاً بتحقيق عدالة اجتماعية متوازنة تعطي للجميع فرصاً

متقاربة، ونقاط انطلاق متشابهة، تتيح لهم العطاء وتحقيق الذات دون حجب الفرصة أو حرمانها من أحد..

لديهم شهوات، لكنها مقوننة..

وهل هو مجتمع ملائكة، هذا المجتمع الذي يكونه أولئك المؤمنون الذين (أفلحوا)، والذين هم خاشعون في صلاتهم..؟ هل هم بلا شهوات..؟

لا.. أبداً.. ذلك لم يكن ولن يكون.. ولو أنه كان لكان معناه أنه غير قابل للعيش والتطبيق.. إنه مجتمع متكون من إنسان متماسك.. لكن التماسك لا يعني عدم وجود "فروج" محفوظة بضوابط معينة.. فروج مقوننة ومتوازنة، ولذلك فهي لا تتسبب في تسريب لهذا التماسك، أو إخلال بتوازنه..

الأمانة الأولى

وكل هذا من أجل ماذا..؟ من أجل رعاية الأمانة والعهد.. والأمانة والعهد هنا يرعيان لا يحفظان فقط، والرعاية تعني الإنماء والازدهار والزيادة، وليس الحماية فقط. عن أي أمانة وأي عهد يتحدث النص المقدس؟ ربما أي أمانة وأي عهد بالمطلق.. وبأكثر المعاني مباشرة. ولكن هناك تلك الأمانة الأولى، وذلك العهد السابق، اللذين هما أولى بالرعاية والحفظ، واللذين سينضم تحتهما أي أمانة وأي عهد..

الأمانة الأولى هي التي حملها الإنسان، بينما أشفق من

حملها سائر الكون ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢/٣٣]، ويكون "جهولاً" عندما ينفصل من رعاية هذه الأمانة ويتركها.. إنها أمانة كونية تخص النوع الإنساني برمته، إنها "الإرادة" و "حق الاختيار" الذي يميز الإنسان عن كل ما هو مسير في هذا الكون، أي الكون كله، ما دام محكوماً بالسير وفق السنن والقوانين دون خيار..

ومحك الاختبار في هذه الإرادة هو إما وضعها في المسار الصحيح، مسار الاستخلاف في الأرض، أو في أي شيء آخر غير هذا المسار، في اللا شيء أحياناً، في العبث، أو في اللغو، أو في مراكمة الأموال، أو الفروج.. إلخ.

العهد الأول

أما العهد الأول فهو ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥/٢٠] وإذا كان الإنسان الأول قد نسي، وفقد العزم، فإن الامتحان والاختبار الذي يواجهه الجنس الإنساني ككل هو أن يثبت أنه يتعلم من أخطائه.. وأنه - على الأقل - قد تعلم من خطئه الأول..

رعاية هذه الأمانة، وهذا العهد، هو ما يفعله أولئك الذين أفلحوا.. الذين تغيرهم صلاتهم.. ليغيروا العالم..

الصلاة مرة أخرى وأخرى

ولأن التغير عملية معقدة وصعبة، وتشبه - كما أسلفنا - مخاضاً مريراً عميقاً، فإننا لا نتوقع أن "الصلاة"- التي ارتبط السياق كله بها- ستقوم بذلك كالسحر، أو كمعجزة. لا، لا نتوقع هذا من الصلاة كما لا نتوقع من شخص بلياقة عادية أن يصير بطلاً رياضياً محترفاً من الجولة التدريبية الأولى، كما لا نتوقع منه أن يحافظ على لياقته إن لم يحافظ على تدريبه بشكل دائم..

كذلك فإن الصلاة - لكي تصل إلى آثارها النهائية - تتطلب صبراً دؤوباً وجهداً شاقاً، وعندما تصل إلى معادلتها النهائية، تحتاج المواصلة والمزيد منها للمحافظة على هذه النتيجة.. وسيحتوي ذلك المخاض كله على "تراجعات" يجب أن نتقبل حدوثها، وأن تعوض بالتدريب مجدداً والعودة إلى ذات اللياقة.. لذلك كله، فإن السياق، ينتهي، بعد كل هذا الوصف، بالقول مجدداً ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩].. ذلك أن المحافظة (رغم ما يبدو أنها تكرار ورتابة) ضرورية لجودة النتائج، ولتقويمها المستمر، وللتعويض عن تراجعات هي الأخرى ملازمة للإنسان..

الإرث المستحق : الفردوس

وكتحصيل حاصل لكل هذا، ودون أي مفاجأة، فإن أولئك ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١]، فالإرث هنا هو استحقاق، لقد صنعوا عالماً آخر، غير الذي ولدوا فيه، أعادوا تشكيل العالم بصيغة أفضل، ولذلك كان الفردوس

الأخروي، إرثاً مستحقاً لفردوس أرضي كانوا هم المستخلفين فيه..

غاية الصلاة : الخلق الآخر

لا يمكن الفرار هنا من أن السياق الذي ينتهي بالإرث الفردوسي، ما يلبث أن يدخل في سياق قد يبدو مختلفاً للوهلة الأولى، وهو سياق مراحل الخلق والتخلق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

[المؤمنون: ٢٣/١٢-١٤]..

فسلالة الطين هذه، ومرورها بكل مراحل الخلق، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى المضغة مكسوة بعظام ثم بلحم، كلها مراحل يمر بها الطين كقدر محتم يمر به الجميع دون خيار من أي منهم..

لكن من قال: إن هذا هو آخر الخلق؛ أن تكون من لحم وعظام..؟

لعل هناك، "خلقاً آخرَ" - وتبارك الله أحسن الخالقين- تمر به وتكونه هذه المرة بملء إرادتك وملء خيارك وملء قرارك الشخصي.. إنه تطورك وارتقاؤك الحقيقيان لحقيقة لا مناص من الإقرار بها، إنه الخلق الآخر الذي تكمله بإرادتك.. أو تنكس عنه بوعيك..

وسيستمد هذا الخلق "الآخر" قوته، رغم ارتباطه بإرادة

الفرد ووعيه، من الخالق نفسه، من إنشائه لذلك.. ذلك أنه هو الذي كلف الإنسان ابتداءً بأن يرتقي ذلك السلم - نحو القمة العالية - خروجاً من سلالة الطين..

الخلق الآخر هو مسؤوليتك أنت. مسؤولية كل فرد على حدة.. مسؤولية أن تغير ذاتك دوماً وترتقي بها.. على درب تغيير العالم..

واستراتيجية الصلاة - في جوهرها - تهدف إلى ذلك الخلق الآخر.. إلى ذلك الارتقاء المستمر الذي لا يعرف حدوداً له ..غير السماء وحدها..

و لذلك كان الحديث عن "الخلق الآخر" كسياق متمم لآيـــة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢٣/١-٢]...

هل يمكن للصلاة حقاً أن تغيرنا..؟

أم أن السؤال المطروح: هل يمكن لأي شيء - على الإطلاق - أن يغيرنا..؟

والسؤال مطروح على الأصعدة كافة: الشخصية؛ التي تهم كل فرد على حدة، والعامة التي تخص تغييراً منشوداً. أم أن كل ما يحدث من تغيرات هو محض واقع مفروض..؟

عبر العقود، كان سؤال التغيير يأخذ أشكالاً متعددة وأساليب مختلفة، وكانت أجوبته كذلك مختلفة بين دعوات النهضة، ولكن مع كل البهرجة الموجودة أحياناً، فإن الواقع

كان دوماً يرسب حقيقة واحدة، وهي التردي المزمن، وهي حقيقة لا يمكن فصل شقها الجماعي، عن شقها الشخصي/ الفردي، وسؤال الفرد والجماعة هنا هو سؤال ملتبس بشبه سؤال البيضة والدجاجة، فهل المجتمع المستلب هو الذي ينتج أفراداً مستلبين، أم أن الأمر مشترك في علاقة جدلية متبادلة يتبادل فيها المجتمع والفرد - والإرث الثقافي الذي يكونهما معاً - الأدوار بشكل متداخل..

خلاصة القول: إن التغيير (ومنذ قرون!) هو حاجة ملحة.. وإن دعاواه كثيرة، وأساليبه ومناهجه أكثر. لكن المهم في التغيير، ليس التنظير له ولا لشعاراته البراقة.. المهم في التغيير، هو التغيير حقاً.

وهكذا، فإن حصيلة المحصلة (للتغيير العام على الأقل، أي على الصعيد الاجتماعي) لم تكن صفراً، بل أسوأ.. كانت محصلة سالبة، لأن التغيير كان إلى الأسوأ، ومعظم الدول العربية (مع استثناءات محدودة) حققت تراجعات كبيرة عن مراتبها بين الدول قبل أربعة عقود أو ثلاثة..

المحصلة على الصعيد الفردي أكثر تعقيداً.. ولا يمكن الجزم إن كان الفرد اليوم يشعر أن حاجته إلى التغيير أقل أو أكثر مما كان الفرد يشعر به قبل بضعة عقود.. كما لا يمكن الجزم إن كان وجود شعور كهذا، أو عدم وجوده، دلالة على تبلد بالإحساس، أو على الرضا بالواقع..

المهم هنا أن التغيير، هو ما يطلبه الجميع.. قد يكون

مطلب التغيير أحياناً محدوداً جداً - وضيقاً جداً -تحسين لظروف معيشية فقط، لا يمكن التقليل من أهمية ضغوطها، وقد يكون مطلباً كبيراً يشمل تغييراً في بنية الواقع..

ولأن محاولات التغيير الكثيرة، لازمها دوماً الإخفاق كتوءم لصيق، فإن الإحباط لم يكن زائراً عابراً قط، بل كان يحمل صفة إقامة شبه دائمة حتى صار من أهل البيت دون أن ننتبه لذلك..

وعندما يصير الإحباط مزمناً، فإنه يقوي نزعة "لا جدوى من فعل أي شيء" ونزعة "لا تفكر لها مدبر". وهما نزعتان تتقويان أصلاً بقوة السلب وسهولة اللا فعل.. مقارنة بصعوبة الفعل والمجازفات المتضمنة فيه..

لذلك كله، هناك فعلاً، كما الحاجة الملحة للتغيير، شعور سائد، بعدم جدواه، بعدم إمكانيته، وهو شعور يعمل كمعول ضد أي محاولة جادة وحقيقية للتغيير.. ويزيد من صعوبة المهمة الصعبة أصلاً..

الفرصة الأخيرة في الصلاة

ليس بالرغم من كل ما سبق، بل بسببه، هناك "فرصة" لنا لكي يتحول التنظير للتغيير (المستمر منذ قرابة قرن وأكثر) إلى تغيير حقيقي.. إلى نهوض فعلي يتجاوز التأرجح المزمن بين السبات والتثاؤب، الذي أدمناه عبر عقود..

بالرغم من كل ما سبق، بل بسببه، لا يزال هناك فرصة للتغيير، للخروج من مسلسل الفشل والإحباط..

وأزعم أن ذلك لم يعد ممكناً إلا عبر "الصلاة"..

ليس لأنها الحل الأخير.. ليس لأننا جربنا كل شيء ولم يبق سواها.. ليس الأمر تجربة وخطأ، إلى أن نجد ما هو صواب..

بل لأنها بالأساس، صممت من أجل ذلك، لقد فرضت من أجل أن تغيرنا، كتبت علينا من أجل أن نعيد كتابة التاريخ، ونعيد صياغة العالم.. بعد أن تساعدنا هي، الصلاة، على إعادة صياغة أنفسنا..

ليس التغيير عبر الصلاة دورة تدريبية باهظة الثمن، لشهر أو اثنين، قد تحفزك على التغيير.. وقد لا تغيرك على الإطلاق، بل هو دورة تدريبية عبر دورة حياتك كلها، منذ أن تصير مطالباً بالصلاة..

الصلاة يمكن لها أن تحدث تغيراً مستمراً فيك، في سلوكك، وفي جعلك إنساناً كنت تريد، دوماً، سراً أو علناً، أن تكونه..

لا "فكر" - مهما كان متماسكاً، مهما كان ثاقباً - قادرٌ على أن يحدث التغيير وحده، ربما فكر كهذا سيحدث "صدمة"، لكن أسر العادة سيتغلب على هذه الصدمة ويجعلها عابرة، وتبقى الهوة بين الفكر والسلوك قائمة..

لا فكر قادرٌ على جسر تلك الهوة، ما لم يقترن بتطبيق عملي يجسده ويحوله إلى عمل حقيقي..

ولا يوجد تطبيق عملي، دؤوب ومستمر، يمكن له أن يكون ذلك الجسر بين الفكر والسلوك: مثل الصلاة..

ليس لأن ذلك يمكن أن يكون، بل لأنه الأساس فيها، لأنها فرضت من أجل هذا..

أن تكون ذلك الجسر الذي ينقلنا من ضفة الفكر والتنظير..، إلى ضفة الواقع والفعل..

إنها الصلاة.. الحلقة المفقودة التي بحثنا عنها في كل مكان..

باستثناء المكان الوحيد، الموجودة فيه..

لم يقم المجتمع إلا بها ..

وسيقولون، ويستغربون، إن هذا مجرد مبالغة لغوية وتصعيد لفظي..

فالصلاة، كانت، (ولا تزال!) حتى بالنسبة إلى كثير من المصلين والمتمسكين بها، مجرد "فرض"؛ علينا أن نؤديه لأننا مأمورون بذلك، وهي دليل طاعتنا له عز وجل، كما لو أنه جل وعلا سيأمرنا بشيء لمجرد أن يرى امتثالنا له - دون أن يكون لذلك الأمر معنى، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، هو العليم الحكيم..

سيطالبون بعدها، بنص محدد، يفصل ذلك.. لسبب بسيط جداً، هو أن رؤيتهم التجزيئية، لكل نص، سواء كان قرآنياً أو نبوياً، تجعلهم عاجزين عن الرؤية الكلية للنصوص مع بعضها بعضاً، والتي لا يمكن فهمها حقاً، وفهم لماذا الصلاة على وقتها هي "أفضل الأعمال"، أو أنها أول ما يحاسب المرء عليه من عمله، أو أنها عماد

الدين.. وغير ذلك .. من فضائل الصلاة، إلا ضمن إطارها الوظيفي دنيوياً، والذي سينتج عنه جزاء أخروي بالتأكيد..

لماذا إذن لا يوجد نص كاف ووافٍ يشفي غليل أصحابنا..؟

ربما لأن هذه الرؤية التجزيئية - أصلاً - ليست من الإسلام في شيء، ولأن الإسلام يولد نمطاً (شمولياً) (كلياً) في التفكير بحيث إنه لا يقف عند الأجزاء والتفاصيل دون ربطها بالكل، ولكن هذا ليس موضوعنا الآن.

وربما لأن الأمور التي يجب أن تحدث (تلقائياً) وتفهم (تلقائياً) لا يجب أن تربط بنص واحد.. لأنها يجب أن تحدث بكل الأحوال.. وتكون أعمق وأكثر فاعلية لو أنها ارتبطت بالمعنى الضمني لمجموع النصوص.. وليس بمعنى علينا أن نفهمه تلقيناً وتكراراً ويقدم لنا بالملعقة والسكين.. فالمعنى الذي ننقب عنه ونحفر لنستخرجه يكون أثبت وأعمق من المعنى الجاهز الذي لا نحرك عضلة في أدمغتنا في تلقيه..

ومع ذلك كله، فإن الصلاة، بالذات ارتباطها الدائم بمفهوم الإقامة، كانت موجودة هنا في عملية التغيير الشاملة التي أطلقها الإسلام والقرآن ..فقد كان نزول الأمر بالصلاة، خلال السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة المكية، بمثابة تمهيد أساسي لحركة التغيير اللاحقة التي تمثلت في قيام مجتمع المدينة، بالضبط كما

كانت "إقامة الصلاة" أساساً في قيام المجتمع المكي الأول، عندما أرسى إبراهيم دعائمه الأولى، عبر البيت، وعبر ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧] و ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٠]..

كل هذا، وربما أكثر، يجعل من استراتيجية الصلاة الحقيقية، موجهة نحو ذلك الهدف..

التغيير..

* * *

وإذا لم تنجح الصلاة - الأقرب منك حتى من أولادك وأفراد عائلتك - في تغييرك ..فهل هناك شيء آخر في العالم سيفعل..؟...



أقزام وعماليق..

كل المعاني المعبأة في حركات وسكنات الصلاة، وكل ما ينبغي أن تعنيه إقامة الصلاة، هو أمر لا يمكن لذلك الأعرابي، الذي تحدثنا عنه في بداية الكتاب، الذي دخل المسجد ليفاوض ويساوم، أن يفهمه..

وهو أمر مفهوم، ألاّ يفهم الأعرابي هذا الكلام أو يستوعبه، في النهاية لم يكن من المطلوب منه أن يتمثل كل ذلك. لم يكن مطلوباً منه سوى أن يبعد نفسه عن تعطيل عملية النهوض التي كانت قد بدأت بالفعل.. لكن، كما تعلمون، لأسباب كثيرة، ليس هنا مجال سبرها، فقد تمثلنا هذا الأعرابي - المجهول، الذي لا اسم له.. وبدلاً من أن يكون مجرد نكرة، فإنه دخل عقولنا واستلبنا - لم يكن ذلك خطأه طبعاً - وربما ليس خطأ شخص بعينه..

لكن أجيال السبات والانحطاط، كان لا يمكن إلا أن تختار ذلك الأعرابي نمطاً تتلبسه لكي تبرر - عبره - فشلها، وتتصور أن مجرد أدائها لبعض الحركات المجردة (كيفما كان، إسقاطاً للفرض) سيورثها نجاحاً في الآخرة، يكون بمثابة مواساة مفترضة عن الفشل المزمن دنيوياً..

لنحاول أن نمسح صورة الأعرابي من رؤوسنا.. إننا لا نعرف ملامحه طبعاً، لكنها صارت على الأكثر ملامحنا..

فلنمسح ملامحنا إذن.. ربما لن يبقى شيء منها إذا حاولنا النظر في المرآة..

ربما ذلك أفضل لنا (وللمرآة)!..

ربما هناك ملامح لرجل آخر يمكن لنا أن نزرعها في وجوهنا، ربما هناك (فهم آخر) يجب أن يسكن رؤوسنا..

* * *

عن رجل آخر..

لم يكن أعرابياً قط.. لكنه بدأ بداية متواضعة جداً.. من عشيرة صغيرة في قريش.. من واحدة من البطون الأقل شأناً.. لم يكن هناك ما يوحي أنه سيتميز، أو أنه سيكون له شأن على الإطلاق.. كل المقدمات، كانت توحي أنه سيكون.. "نكرة" أيضاً، وأن مروره على هذه الأرض لن يكون مهماً، حاله حال ذلك الأعرابي الذي لم نعرف اسمه قط..

لكن، هذا الرجل، تفاعل مع القرآن، ومع رسالة الإسلام، بشكل مختلف تماماً، فكان جزءاً من ذلك النهوض الشامل، ومن ثم صار جزءاً من "الإقامة" الشاملة، ومن ثم صار جزءاً أساسياً من حركة التاريخ..

وترك أثره في التاريخ بأسره..

وقبلها، كان يمكن أن يكون مجرد نكرة، بلا اسم..

* * *

إنه عمر بن الخطاب، ذلك الرجل الذي كان يمكن أن يكون نكرة، لكنه، بدلاً من قدر النكرات، اختار "قدر النهضة".. كان يمكن أن يكون في المحاق التام.. في العدم، لكنه اختار البدر التام.. اختار الفعالية والتأثير..

وترك بصمته على العالم بأسره..

تستطيع أن تقول، بيقين تام، إنه غادر هذا العالم، والعالم أفضل بكثير مما كان عندما جاءه..

لقد أحدث فرقًا!..

* * *

كان ينبغي لنا، أن نأخذ عمرَ بن الخطاب، نموذجاً لما يجب أن تفعله الصلاة بنا..

ولكن، تعلمون كيف سارت الأمور بنا، وإذا بالسبات يرشح لنا فهماً آخر، نموذجاً نكرة، يريد الحد الأدنى من كل شيء، ويتصور أن ذلك هو أقصى ما يستطيع..

ونفهم الآن، كيف أن لفظ "الإقامة"، لم يرد في حواره عليه أفضل الصلاة والسلام مع الأعرابي..

كما لو أن "الإقامة" تحتاج إلى قامة أكبر من شخص جاء ليسأل عن أدنى الأمور..

كما لو أن الإقامة، تحتاج إلى سياق (آخر)، وإلى فهم آخر، أعلى وأرقى..

لذلك، كان شخص "الحد الأدنى" مستبعداً تماماً من موضوع الإقامة.. من أمر "النهوض" والنهضة برمته..

* * *

أما عمر، فقد استطاع أن يجعل من "إقامة الصلاة" وسيلة لتغيير العالم..

لقد وعاها - وفهمها حقاً - كما يجب أن تكون..

لذلك فقد كانت إقامته للصلاة مختلفة تماماً عن كل تصوراتنا للصلاة، لكل ما فهمناه منها، ارتقى عن مفهوم "الفرض المجرد" وعن مفهوم السكينة والراحة ومفهوم الخشوع المعزول عن الواقع..

انتقل بصلاته، إلى أن تطابقت كشعيرة، مع رؤيته القرآنية للحياة، مع دوره في هذه الأرض..

دور الخليفة..

النموذج الأعلى من الخشوع

ومن هذا التطابق، جملة قالها عمر، نقلت لنا عنه، من داخل صلاته..

ليس عن الدموع المنهمرة، وإن كان هناك شيء منها.. وليس عن الانقطاع عن العالم الخارجي.. بحيث تفصل نفسك عن التفاعل معه..

قال عمر عن صلاته شيئاً هائلاً، قال: "إني لأجهز الجيوش في صلاتي".. ومعنى هذه الجملة الآن: إني لأغير العالم في صلاتي...

* * *

كانت صلاته تمده بتلك الطاقة - تشحن بطاريته - تجعله يرتقي..

لكن ارتقاءه لم يكن ليأخذه بعيداً عن الواقع.. بل كان يمده بقوة يجعله قادراً على الارتقاء بالواقع..

لذلك، كان خشوعه تفاعلاً مع آيات القرآن، مع حركات

وأركان الصلاة، ليس بالبكاء فحسب، بل بعرضها على الواقع، ويعرض الواقع عليها..

بإرادة تغيير العالم، ليكون متوافقاً معها..

* * *

سيقول بعضهم: إنها الدولة الناشئة.. وحروب توسيع حدودها.. والغنائم المغرية..

من أجل ذلك كان يفكر بتجهيز الجيوش في الصلاة..

هذا كل ما يفهمه بعضهم من ظاهر الأمور..

* * *

تجهيز الجيوش، كان هو الوسيلة الوحيدة آنذاك لتغيير العالم..

وهاجس العدالة العمرية، المعروفة عن عمر، (المستقاة من تشربه بالقرآن) كان الدافع أساساً وراء تجهيزه الجيوش في صلاته..

كان العالم مليئاً بالظلم (.. ولا يزال ..)..

وكان عمر، وهو يقيم الصلاة، يعرف أن مهمته على هذا الكوكب تتطلب منه تغييره ..تتطلب أن يحول (القيم) في صلاته، من مجرد رؤى وأفكار في الرؤوس إلى واقع معاش..

كانت صلاته تدريباً له على ذلك..

وكان يجهز جيوشه من خلالها..

..وهل حدثتك نفسك بأن تغير العالم، وأنت في صلاتك؟..

هل خطر في بالك ذلك أصلاً.. هل قالوا لك إن ذلك سيفسدها؟..

أم أن، الأمر كله ليس وارداً، لأنك إنسان الحد الأدنى، الذي لا يتصور أن بإمكانه فعل شيء لنفسه أو للمجتمع من حوله، فضلاً عن أن يفعل شيئاً للعالم بأسره..

أم أنها محض "صلاة"، تؤديها لتنجو من عقاب تركها، ولا تعرف سبباً لأدائها غير ذاك.. غير أدائها نفسه.. ولا شيء غير ذاك..

* * *

تغيير العالم -صلاته كانت تأمره أن يغير العالم..

تغيير العالم، وليس أبداً أن تكون جزءاً بارزاً من عالم ظالم.. كما هي أقصى طموحات بعض الإيجابيين اليوم..

"أصلاتك تؤمرك أن تغير العالم؟"..

بالنسبة لعمر، بالنسبة للجيل الأول الذي غير العالم فعلاً.. كان الجواب.. نعم ..

* * *

بين ذاك الأعرابي الذي دخل وخرج، وبين عمر الذي دخل ولم يخرج من التاريخ، مسافة كبيرة.. إنها مسافة بقدر ما نحتاجه للنهوض من سبات التاريخ..

نحتاج أن نقتلع صورة ذلك الأعرابي الذي سكن

واختلط مع عقولنا ورؤانا وملامحنا.. وجعل من أفقنا واطئاً مثل سقف خيمة، وصلاته محض محاولة.. ونحتاج، بعد ذلك، أن نحدد هدفنا: قامة عملاقة، مثل قامة عمر، أفقه غير محدود.. وطموحاته لا أسوار لها.. وصلاته وسيلة لتغيير العالم..

قامة مثل قامة عمر، لو سكنت رؤوسنا.. وفهم للصلاة مثل فهم عمر، لو تجذر في أفكارنا، وأفق مثل أفق عمر، لو كسر أقفاصنا.. فإن شيئاً في حياتنا لن يبقى كما هو..

ستكون المقارنة بين ما هو كائن الآن، وما سيكون عندها، كالمقارنة بين ذاك النكرة، الذي سقط اسمه من التاريخ، وبين عمر، الذي لا يمكن حذفه من التاريخ..

لعلها مهمة صعبة..؟

بالتأكيد، إنها مهمة صعبة جداً.. من قال: إن النهضة أمر يسير، وإنها عملية يسيرة مثل الذهاب إلى رحلة كشفية وإنشاد بعض الأناشيد وصيد الفراشات؟! المسافة بين ذلك الأعرابي، وبين عمر.. شاسعة.. والوصل بين النقطتين مهمة صعبة..

المهم، ألاّ تكون مستحيلة..

وبين الصعوبة، والاستحالة خيط رفيع جداً ..يقطعه وعينا.. وإرادتنا.. ورغبتنا بالخروج مما لم يعد ممكناً البقاء فيه..

دمشق ١٥ رمضان

٢٨ / ٩ / ٢٠٠٧م

مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني – عبر الصلاة – فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

في الحلقة الأولى من السلسلة، التي تتكون من مقدمتين وستة فصول وخاتمة، يسلط الضوء على مفهوم الصلاة عموماً، وعلى علاقتها بمفهوم الشعائر عموماً، وعلى كون (الإنسان مخلوقاً شعائرياً) في كل أحواله، ثم ينتقل الحديث إلى مفهوم إقامة الصلاة كما حددها القرآن الكريم، المفهوم الذي لا علاقة له بما يمارس حالياً من أداء للصلاة منفصل عن كل قيم النهضة التي تتمثل فيها.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode One of this series, which consists of two introductions, six chapters and a conclusion, highlights the concept of prayer in general, its relation with the concept of rituals in general and "the human's being a ritual creature" in all his conditions. Then it discusses the concept of performing prayer according to the teachings of the Holy Qur'an that have nothing to do with the way we perform prayer at present, which is completely separated from all the values of revival that prayer represents.

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته .

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار ، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيدك من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم .

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع .

e-mail:fikr@fikr.net

www.fikr.com

كيمياء الصلاة ١

المهمة غير المستحيلة

Mission possible
Al-Muhimmah Ghayr al-Mustaḥīlah
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

الحلقة الأولى تتحدث عن كون الصلاة دورة تدريبية تُعدّك لإعادة بناء العالم. تتحدث هذه الحلقة عن الإطار النظري للأمر، وعما هو سائد من مفهوم مختلف لأدائنا للصلاة الذي يركز على الأداء المجرد المنفصل عن الواقع، من أجل التكفير عن الذنب، أو من أجل ما يسمى بإسقاط الفرض. (إقامة الصلاة) ستمتلك معنى إيجابياً نهضوياً عندما تُقرأ من خلال مجموع النصوص القرآنية وقراءة آثارها في الفرد والمجتمع. ستكون **إقامة** الصلاة هنا أساساً في (**إقامة**) الفرد، الذي **يقيم** المجتمع، والحضارة.

الصلاة إذن يجب ألا تكون نقرات عابرة على الأرض، بل هي نقرات على بوابة العالم، من أجل إعادة بنائه. هل ذلك صعب؟ بالتأكيد – إنها مهمة صعبة جداً – لكنها (غير مستحيلة).

ISBN -9953-511-66-7
9 789953 511665

تصميم الغلاف: يمان بطيخة